من أسرار التعبير القرآني

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

دكتورة
أمينة محمد عبده سليم

مدرس البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر - بنات الإسكندرية

من أسرار التعبير القرآني

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

دكتورة
أمينة محمد عبده سليم

مدرس البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر- بنات الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد قامت دراسات كثيرة ومتنوعة حول القرآن الكريم، فى محاولة إلى تدبر معانيه والكشف عن بعض أسراره البلاغية لإظهار بعض وجوه إعجازه، ولكن هذا المجال لا يزال بكرًا يحتاج إلى جهود العلماء والباحثين المتخصصين للكشف عن مواطن الإعجاز فيه والوقوف على بعض أغراضه.

نعم، إنه القرآن الكريم، أسلوب فريد لا يسامى ولا يصل إلى بعض مراميه إلا كل باحث مخلص نذر حياته للعمل فى خدمة كتاب الله، لما فيه من معجزات أبدية لا تنتهى ولا تخلق على كثرة الرد، فما زال العقل يقف متحيرًا، أمام جلال تنزيله مبهورًا من جمال نسقه وبلاغته، فهو المعجز للبيان فى جميع صوره وألوانه، فقد عجز العرب عن الإتيان بمثله فى تحديهم، وقد نزل من جنس كلامهم، فقهرهم.

وها نحن اليوم أمام هذه الدراسة القرآنية العظيمة، نحاول من خلال أساليبه المختلفة أن نقف على أسرار التعبير القرآنى فى خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، فهو ميدان لم نظفر فيه بدراسات كثيرة، ولذلك عقدت العزم على البحث فيه مستعينة بكتاب الله، ومصادر أهل العلم القدماء، حتى أقف على بعض أسراره، فخرجت بكنوز ثمينة من المعانى القرآنية المعجزة، إلا أن الطريق كان صعبًا وليس معبدًا، لأننا وجدنا هذا الموضوع متفرقًا، وبخاصة التغليب لم يأخذ حظه من الترتيب والتبويب والاهتمام، حتى يستطيع الباحث أن يجمعها ويقف على أسرارها وقيمتها البلاغية، لكنها مطروحة دون استقلال عن باقى أبواب البلاغة، فاحتاجت إلى جهد الباحث الدقيق المتأنى حتى يجمع شتاتها، ويلم شعثها ويحاول

التفرقة بين هذا الأسلوب وذاك، وليس هناك آراء كثيرة فى هذا اللون من ألوان التعبير على كثرة فروعه، وترامى أطرافه، وهذا مما جعلنى أعقد العزم على مواصلة هذا العمل ليل نهار، حتى أصل إلى ما فيه إيضاح لبعض المواطن التى كانت غامضة، مستعينة بالله وكتب التفاسير المختلفة وآراء العلماء فيها، حتى يكون هذا البحث سهلاً ميسورًا، لمن يعمل فى هذا المجال.

فعرضت لتذكير المؤنث، وتأنيث المذكر، وأسلوب الالتفات، وأسلوب الحكيم، وتجاهل العارف، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر، فى وضع المظهر موضع المضمر وعكسه، والتعبير بالماضى عن المستقبل وعكسه، والقلب، وترتيب صيغ الأفراد والتثنية والجمع والعكس، وما جاء بصيغ مختلفة يحل بعضها مكان بعض، كما بينت ما جاء فى أسلوب القرآن الكريم من تغليب العقلاء على غيرهم، ووضع الإنشاء موضع الخبر وعكسه.

فأرجو أن أكون قد وفقت ليسد هذا البحث مكانًا فى المكتبة البلاغية.

والحمد لله أولاً وآخرًا، وإن كانت الأخرى فالكمال لله وحده.

وما توفيقى إلى بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المؤلفة

الفصل الأول

حقيقة التغليب

حقيقة التغليب

التغليب باب واسع يجرى فى فنون كثيرة تناوله علماء اللغة والأدب، فنرى أبا عبيدة معمر[1] بن المثنى ت ٢١٠ هـ يذكره ويعرض له شواهد دون الوقوف على الغرض البلاغى، أو التعريف به.

كذلك نجد المبرد[٢] ت ٢٨٥ هـ، ينقل عن العرب أمثلة للتغليب فيقول : الأسودان : التمر والماء، والأحمران اللحم والنبيذ، وقالوا أيضًا الأحامرة : اللحم والنبيذ والزعفران، والأبيضان : الشحم واللبن، وقيل : الماء واللبن، وذهب منه الأطيبان : الطعام والنكاح، والحجران : الذهب والفضة، والعصران : الغداة والعشى، والقمران : الشمس والقمر، والعمران : أبو بكر وعمر[٣]، والملوان : الليل والنهار، ومنه قوله تعال : ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[٤] أى دهرا[٥]، إلى غير ذلك من أسماء كثيرة. وعليه قول ابن مقبل :

ألا يا ديار الحي بالسبعان أمل عليها بالبلى الملوان

يعنى الليل والنهار – أى رجع عليها حتى أبلاها : أى طال عليها.

ويذكر المبرد أمثلة كثيرة للتغليب، دون أن يضعها تحت هذا الاسم، وإنما يكتفى بسرد شواهده.

---

[١] مجاز القرآن، ج ١ ص ١١ وما بعدها، وانظر شروح التلخيص، ج ٢ ص ٥١.

[٢] الكامل، ص ٢١ – ٢٢.

[٣] المقتضب للمبرد، ج ٤ ص ٣٢٦

[٤] مريم : ٤٦.

[٥] مجاز القرآن لأبى عبيدة، ج ١، ص ٠٨

أما الرضى الاسترابادى[١] ت ٦٨٤ هـ فيتناوله بشكل سريع فيغلب المذكر على المؤنث، والعاقل على غير العاقل، وبذلك يضع قاعدة، ولكنها غير دقيقة[٢]، لأن التغليب قد يقع بين المذكرين كالعمرين فى أبى بكر وعمر، وغير العاقلين كالحجرين فى الذهب والفضة، وعندئذ يحتاج التغليب إلى قاعدة أخرى أعم وأشمل، لتسد الثغرة التى ينفذ من خلالها الطعن فى القاعدة السابقة.

ويتفق كل من ابن الحاجب ت ٦٤٦ هـ، والطيبى ٧٤٣ هـ فى تغليب الأدنى على الأعلى أو العكس، بينما يرى السيوطى ت ٩١١ هـ فى معترك الأقران أن التغليب ليست له قاعدة معروفة يسير العلماء على هديها.

فيقول : إنه قد ورد تغليب الأدنى على الأعلى تارة، وتغليب الأعلى على الأدنى تارة أخرى، وتعارض السماع من الجهتين، فعلم أنه ليس لذلك قاعدة مطردة، ثم يبين أن العرب تغلب الأفضل : كالأبوين، وتارة الأخف كالقمرين، وتارة المذكر : كالعمرين.

وقال ابن رشيق فى العمدة[٣] إن الكسائى ت ١٨٣ هـ قال : إن التغليب فى العمرين إنما هو لكثرة الاستعمال فإن أيام عمر أطول من أيام أبى بكر رضى الله عنهما، وكذلك ذكره ابن الشجرى[٤].

ونرى السبكى ت ٧٧٣ هـ فى عروس الأفراح[٥]، يذكره مرة على

---

[١] شرح الكافية، ج ٢، ص ١٨٦.

[٢] فن البلاغة، بتصرف د/ عبد القادر حسين، ص ٣١٩.

[٣] العمدة لابن رشيق، ص

[٤] شروح التلخيص، ج ١، ص ٥٤، وانظر فى البلاغة بتصرف، ص ٣١٩.

[٥] شروح التلخيص، ج ٢، ص ٥٨.

سبيل الاستطراد فى علم المعانى، وأخرى فى علم البديع[1].

ويتفق الخطيب القزوينى ت ٨٣٧ هـ مع السبكى فى عده للتغليب ضمن المحسنات البديعية[1]، وفى رأى آخر له قال : يصح أن يلحق بعلم البيان.

أما الزركشى ت ٧٩٤ هـ صاحب البرهان، فقد أفرد بابًا واسعًا مرتبًا للتغليب وألوانه المختلفة.

آراء العلماء فى التغليب :

اختلف علماء اللغة والأدب فى تناولهم للتغليب من حيث الحقيقة أو المجاز، فمنهم من قال : إنه مجاز ومنهم من عارض ذلك.

فقد ذكر الخطيب القزوينى[2] : أن التغليب وألوانه لا يعد من المجاز، لأن المجاز نقل اللفظ من معنى إلى آخر، أما التغليب فهو كالمشاكلة الآتية فى البديع، فإنما ينقل فيه المعنى من مكان إلى مكان لا اللفظ.

كذلك نرى السعد التفتازانى ت ٧٩٣ هـ صاحب المطول قد اعتبر التغليب بألوانه وأمثلته من المجاز، لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له.

أما البهاء السبكى تناوله مرة فى علم المعانى ومرة فى علم البديع[3].

وهناك من قال إن التغليب من المجاز المرسل لعلاقة المجاورة[4]،

---

(1) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٧٣.

(1) بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٩١ الهامش.

(2) بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٩١.

(3) بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٩١

(4) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص، ج ٢، ص ٥٤.

أما الزركشى فقد عده من المجاز[١].

ومهما يكن من شىء فإننا الآن بصدد دراسة هذا الباب وألوانه المختلفة حتى نقف عند أغلب أساليبه والقيمة البلاغية من وراء هذه الدراسة، خاصة وأن ألوانه المختلفة كانت موضع اهتمام علماء التفسير، إلى جانب علماء اللغة الأدب، وأن جل شواهده من القرآن الكريم.

[١] البرهان، ج ٣، ص ٣١٢.

الفصل الثانى

أسرار الإفراد فيما ظاهره التثنية

أسرار الإفراد فيما ظاهره التثنية

هذا الأسلوب يقع ضمن أساليب التغليب المختلفة، وقد ورد عن العرب، والقرآن الكريم كثير من الشواهد فمن ذلك قول حسان بن ثابت :

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

ويتناوله ابن الشجرى بالتعليق فيقول : ما لم يعاص فأفرد الضمير وإن كان لاثنين، وحق الكلام أن يقال : "يعاصيا" ثم ذكر العلة البلاغية فى وضع المفرد موضع المثنى بقوله : ذلك لأن كل واحد منهما بمنزلة الآخر فجريا مجرى الواحد، ألا ترى أن شرخ الشباب هو اسوداد الشعر ؟ ولأنهما مصطحبان صارا بمنزلة المفرد[١].

ومنه قول الأعشى :

فرجى الخير وانتظرى إيابى إذا ما القارظ العنزى آبا

وإنما هما قارظان، فالمثل "حتى يئوب القارظان"[٢] فعبر بالمفرد، وأراد المثنى، وإنما قال ذلك لعلة بلاغية، وهى أنهما صارا كالشيئين لا يغنى أحدهما عن الآخر، فلذلك عبر عنهما بصيغة المفرد[٣].

قال الرضى فى شرح الكافية، وقد يقع المفرد موقع المثنى فيما يصطحبان ولا يفترقان، كالرجلين والعينين، تقول : لا تنام أى عيناى[٤].

---

[١] هامش تأويل مشكل القرآن، ص ٢٢٢، وانظر فن البلاغة ص ٢٩٨ د/ عبد القادر حسين، وانظر أسلوب التغليب، ص ١١ د/ صفا.

[٢] من أمثالهم "لا يكون ذلك حتى يئوب القارظان" وهما رجلان أحدهما من عنزة والآخر عامر بن غنيم خرجا يجتنيان القرظ فلم يرجعا فضرب بهما المثل، انظر اللسان مادة قرظ.

[٣] عقود الجمان للسيوطى، ج ١، ص ١٠٤، وانظر فن البلاغة، ص ٢٩٩ د/ عبد القادر حسين.

[٤] شرح الكافية الرضى، ج ٢، ص ١٧٧

فالعلة البلاغية إذًا فى وضع المفرد موضع المثنى هى أن الاثنين متلازمان متصاحبان، يتصل أحدهما بالآخر أشد الاتصال، ويرتبط به كل الارتباط فصارا كأنهما شىء واحد، لا شيئين مختلفين فحق حينئذ أن يعبر عنهما بلفظ المفرد، وليس بلفظ المثنى[١].

وقد وردت آيات بينات توضح فائدته وقيمته البلاغية فى التعبير كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾[٢] أى "ويا هارون" ويقول صاحب البرهان[٣] وفيه وجهان :

أحدهما : أنه أفرد موسى عليه السلام بالنداء بمعنى التخصيص والتوقف، إذ كان هو صاحب عظيم الرسالة وكريم الآيات، ذكره ابن عطية.

والثانى : لما كان هارون أفصح لسانًا منه على ما نطق به القرآن ثبت عن جواب الخصم الألد، ذكره صاحب الكشاف[٤]، وانظر إلى الفرق بين الجوابين.

ومثله : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾[٥] قال ابن عطية : إنما أفرده بالشقاء من حيث كان المخاطب أولاً والمقصود فى الكلام، وقيل بل ذلك لأن الله جعل الشقاء فى معيشة الدنيا فى حُيز الرجال، ويحتمل الإغضاء عن ذكر المرأة، ولهذا قيل : من الكرم ستر الحرم[٦]. وقوله

---

(١) فن البلاغة، ص ٢٢٩ د/ عبد القادر حسين.

(٢) طه : ٤٩.

(٣) البرهان، ج ٣، ص ٢٤٩.

(٤) الكشاف، ج ٢، ص ٢٦.

(٥) طه : ١١٧

(٦) البرهان، ج ٢، ص ٢٤٩.

تعالى : ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١] ونحوه فى وصف الاثنين بالجمع قوله تعالى : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[٢] .وقال: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾[٣] ولم يقل "اختصما" وقال "فتاب عليه"، ولم يقل "عليهما" اكتفاء بالخبر عن أحدهما بالدلالة عليه[٤] .

ومن أمثلة هذا الأسلوب ما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٥] فقد ورد التعبير بالإفراد فى الضمير عند قوله "أن يرضوه" والحديث عن الله ورسوله، فظاهر السياق التعبير بالتثنية "يرضوهما".

وقد ذكر الزمخشرى فى كشافه : وإنما وجد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ فكانا فى حكم مرضى واحد. لتلازم الرضاءين. أما أبو السعود[٦] : فيرى فى تفسيره أن إفراد الضمير فى "يرضوه" إما للإيذان بأن رضاه ﷺ مندرج تحت رضاه سبحانه، وإرضاؤه إرضاء له تعالى لقوله تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

---

[١] الشعراء : ١٦.

[٢] التحريم : ٤.

[٣] الحج : ١٩.

[٤] البرهان، ج ٢، ص ٢٤٩.

[٥] التوبة : ٦٢.

[٦] تفسير أبو السعود على هامش التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٥٤.

وإما لأنه مستعار لاسم الإشارة الذى يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور، كما فى قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك لا يقال، أى حاجة إلى الاستعارة بعد التأويل المذكور لأنا نقول : لولا الاستعارة لم يتسن التأويل، وإما لأنه عائد إلى رسوله، والكلام جملتان، حذف خبر الأولى لدلالة خبر الثانية عليه.

وما نميل إليه من الآراء السابقة أن الله سبحانه أفرد الضمير فى الآية لما صرح به من أن طاعته سبحانه وتعالى طاعة لرسوله ﷺ كما أن طاعة الرسول طاعة الرب، وهذا يلزمه التعبير بالإفراد.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[1]. فقد ورد التعبير بالتثنية فى الأمر، ثم الإفراد فى النهى، "ولا تولوا عنه" وظاهر السياق التثنية "تولوا عنهما".

واحتمالات أخرى ذكر منها أنه أفرد باعتبار عود الضمير إلى الله وحده لأنه الأصل مع أن طاعة الله وطاعة رسوله متلازمان. قال تعالى ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[2] فكان الإعراض عن الرسول اعراضًا عن الله فاكتفى بذكره، ومنها أن معناه : ولا تولوا عن هذا الأمر وأمثاله، فالضمير للأمر لا للرسول ﷺ.

---

[1] الأنفال : ٢٠.

[2] النساء : ٨٠.

ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١] فقد ورد التعبير بصيغة الإفراد فى "آية" وظاهر السياق التثنية.

ويرى الفراء أن سر الإفراد فى قوله "آية" ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد، ولو قيل آيتين لكان صوابًا، لأنها ولدت وهى بكر وتكلم عيسى فى المهد فتكن آيتين إذا اختلفتا[٢].

وتابع الفراء كثير من أهل التفسير[٣]، والحقيقة إنما يكمن سر الإفراد هنا، فى قوله : "آية" لأن ميلاد عيسى عليه السلام دون أب وكلامه فى المهد، إنما هو معجزة خاصة به هو دون غيره، فهو بماحدث له يصح أن يكون علامة، أو آية، وهذا الرأى يتوافق مع الآراء السابقة ولا خلاف عليه، فالإفراد جاء فى موقعه ومقتضى حاله.

وأما ما جاء فى قوله تعالى، من هذا الأسلوب فى قصة فرعون مع موسى وهارون، ففى قوله تعالى : ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤] فقد ورد التعبير بالإفراد فى قوله : "رسول" وظاهر السياق التثنية لأن المرسل إلي فرعون كان موسى وهارون.

وللفخر الرازى رأى دقيق فى الكشف عن سر الإفراد فى هذه الآية، وعبارته فى ذلك، وأما قوله تعالى : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ففيه

---

[١] الأنبياء : ٩١.

[٢] معانى القرآن للفراء، ج ٢، ص ٢١.

[٣] التفسير الكبير، ج ٦، ص ١٣٢، الكشاف، ج ٢، ص ٥٨٣، البحر المحيط، ج ٦، ص ٣٣٦، تفسـ أبى السعود، ج ٧، ١٠٢.

[٤] الشعراء : ١٦.

سؤالان وهو أنه هلا ثنى الرسول كما ثنى قوله : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وجوابه من وجوه منها : أن الرسول اسم للماهية من غير بيان تلك الماهية واحدة أو أكثر، والألف واللام لا يفيدان إلا الوحدة للاستغراق، ثم قال : وإذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد إلا الماهية، وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله، إنا رسول رب العالمين. ومنها أنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوة كأنهما رسول واحد.

ومنها المراد كل واحد منا رسول، ومنها إنما قال ذلك لكون موسى هو الرسول خاصة[1].

والحقيقة أن ما قاله "الفخر الرازى" من احتمالات واشترك معه صاحب البحر المحيط هو حق وأصاب كبد الحقيقة، إلا أنى أقول إن العرب تنطق إنا على أنها نحن، فعلى هذا يكون التعبير اللغوى مناسبًا للمقام فى قوله : نحن رسول، والجماعة تقول هكذا، وينطبق هذا التعبير على الاثنين أيضًا لأن أقل الجمع اثنين، فقد جاء التعبير القرآنى موافقًا للمقتضى والمقام ولغة العرب.

وكذلك قوله تعالى : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[2] أفرد فى قوله "قعيد" وظاهر السياق التثنية «قعيدان يرى الفراء أن الأصل : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف أحدهما لأن المعنى معروف»[3].

---

[1] التفسير الكبير، ج ٣، ص ٣٦٥.

[2] ق : ١٧.

[3] معانى القرآن، ج ٢، ص ١٩٣.

والفراء بذلك يقول : إن حذف الثانى لدلالة الأول عليه أو حذف الأول لدلالة الثانى عليه، وهذا من الأمور المتفق عليها فى علم المعانى.

والحقيقة أن وزان هذه الآية وزان الآية السابقة لأنه يصح أن تقول للجماعة وللمثنى هذا الوصف فنقول، هما قعيد، لعدم انفكاك الجهة، فلو أننا قلنا "قعيدان" لاحتمل الانفكاك والمفارقة وهما بطبيعة الحال مكلفان تكليفًا واحدًا وعملهما واحد فهما على ما يقتضيه الحال والمقتضى، فيكون التعبير بقعيد أبلغ. كما أن "قعيد" على وزن فعيل صيغة مبالغة، وهذه الصيغة يصح التعبير بها فى كل أحوال اللفظ العربى.

الفصل الثالث

أسرار الإفراد فيما ظاهرة الجمع

أسرار الإفراد فيما ظاهرة الجمع

وهو أحد أساليب التغليب المراد به أن يـأتى بصيغـة الإفـراد علـى أن سياق الظاهر التعبير بالجمع.

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[1].

فنرى أبا حيان يقول : إن أحدًا للعمـوم ولذلـك دخلـت "مـن" عليهـا كقوله تعالى : ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[2]، والمعنى بيـن آحـادهم، ثم ينقل عن بعضهم قوله : «وأحد قيل إنه بمعنى جميع والتقدير بين جميـع رسله وقال أيضًا... لا يفرق بين أحد من رسله وبين غيره فى النبوة»[3].

ويـرى احتمـالاً آخـر وهـو أن يكـون الـتركيب ممـا حـذف فيـه المعطوف لدلالة المعنى عليه والتقدير لا يفرق بيـن أحـد مـن رسـله وبيـن أحد، فيكون أحد هنا بمعنى واحد[4].

والحقيقة إننا إذا نظرنا بدقـة نجـد أن القـرآن الكريـم يفسـر بعضـه بعضًا، فإن ما جاء فى قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[5] .

---

[1] البقرة : ٢٨٥.

[2] الحاقة : ٤٧.

[3] البحر المحيط، ج ٢، ص ٣٧٥.

[4] التفسير الكبير، ج ٢، ص ٣٦٥.

[5] الشورى : ١٣.

هذه الآية الكريمة جعلت الشرائع كلها فى دين واحد اجتمعوا فى رسول واحد، فقال أحد بالإفراد هذه واحدة.

أما الثانية : فإنه لما قال "بين" والمباينة لا تكون بين شىء واحد، بل تكون بين شيئين وأكثر، فهنا احتمال أن يكون فى الآية إيجاز بالحذف على تقدير "بين أحد والآخرين من رسله" وهو ما أشار إلهي فخر الدين الرازى[١].

ومن أمثلة هذه اللون قوله تعالى : ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[٢].

فقد ورد التعبير بالإفراد فى "رفيقا" وسياق الظاهر الجمع أى "رفقاء".

أما صاحب معانى القرآن[٣] : فقد كانت له نظرة لغوية فى الكشف عن سر الإفراد فى "رفيق" وعبارته وإنما وجد الرفيق وهو صفة الجمع، لأن الرفيق والبريد والرسول تذهب به العرب إلى الواحد وإلى الجمع، فلذلك قال : "وحسن أولئك رفيقا".

ولا يجوز فى مثله من الكلام أن تقول : "حسن أولئك رجلا" ولا قبح أولئك رجلا" وإنما يجوز أن توجد صفة الجمع إذا كان اسمًا مأخوذًا من فعل، ولم يكن اسمًا مصرحًا مثل رجل وامرأة.

---

[١] التفسير الكبير، ج ٢، ص ٣٦٥.

[٢] النساء : ٦٩.

[٣] معانى القرآن، ج ١، ص ٢٦٨.

والزمخشرى يجوز أن يكون "رفيقا" مفردًا مرادًا به الجنس فى باب التمييز[١].

وقد انتفع الرازى بما قاله الفراء فى مثل هذا التعبير[٢] وهو ما ذهب إليه علماء اللغة، وتابعهم فيه المفسرون فيما جاء من تعليل الإفراد، وهو ما يتناسب مع مراعاة للحال والمقام.

ومن أمثلة هذا الأسلوب قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣] فقد ورد التعبير بالإفراد فى "مثله" والمعنى على الجمع "أمثاله مفتريات".

وقد أفاد أبو حيان فى البحر المحيط أن "مثل" يوصف به المفرد والمثنى والجمع، كما قال فى آية أخرى ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[٤] كما أنه تجوز المطابقة فى التثنية والجمع كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[٥] ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾[٦].

وأبان أنه إذا أفرد وهو تابع المثنى أو مجموع فهو بتقدير المثنى والمجموع أى مثلين وأمثال، والمعنى هنا بعشر سور أمثال ذهابًا إلى مماثلة كل سورة منه له[٧].

---

(١) الكشاف، ج ١، ص ٥٤٠.

(٢) التفسير الكبير، ج ٣، ص ٢٦٠.

(٣) هود : ١٣.

(٤) المؤمنون : ٤٧.

(٥) محمد : ٣٨.

(٦) الواقعة : ٢٣.

(٧) البحر المحيط، ج٥، ص ٢٠٨.

واستشهد أبو حيان بما قاله "ابن عطية" من أنه قد وقع التحدى فى هذه الآية بعشر لأنه قيدها بالافتراء فوسع عليهم فى القدر لتقوية الحجة غاية القيام، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية بسورة مثله دون تقيد، فهى مماثلة تامة، وعجزوا فى هذه الآية بأن قيل لهم عارضوا القدر منه بعشر أمثاله، فى التقدير والغرض واحد، وجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه.

فهذه غاية التوسعة، ويؤيده أن التكليف فى آية البقرة إنما هو سبب الريب ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة، وفى هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم افتراه وكلفوا نحو ما قالوا[1].

وما ذهب إليه أبو حيان قد سبقه إليه الزمخشرى فى كشافه، وعبارته فى ذلك "مثل بمعنى أمثاله ذهابًا إلى مماثلة كل واحدة منها له".

ويرى أن السرفى تأويل الخطاب بكونه جمعًا فى "فاعملوا" بعد الإفراد "قل" أن المعنى فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأن الرسول ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدونهم.

وقد قال فى موضع آخر، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم. كما أنه يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله[2]. ومن أمثلة هذا الأسلوب ما جاء فى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[3].

فقد ورد التعبير فى الآية بالإفراد فى "ضيفى" وسياق الظاهر الجمع "ضيوفى" ليطابق الخبر المبتدأ.

---

[1] البحر المحيط، ج ٥، ص ٢٠٨.

[2] الكشاف، ج ٢، ص ٢٦١.

[3] الحجر : ٦٨.

ويذهب أبو السعود فى تفسيره إلى أن الضيف فى الأصل مصدر يطلق على الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وإطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده ﷺ لكونهم فى زى الضيف[1]، وبما أن الملائكة جنس واحد، فعبر عنها بالإفراد وجاء هذا التعبير موافقًا للجنس.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾[2].

وكذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[3].

فقد ورد التعبير بالإفراد فى "ساحر" وسياق الظاهر الجمع، إنما صنعوا كيد سحرة لأن العمل عمل سحرة فالقصد فى هذا الإفراد إلى معنى الجنسية لا إلى المعنى العدد، لأنه لو جمع لخيل أن المقصود هو العدد، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ولا يفلح الساحر﴾ أى هذا الجنس وقد أشار إلى هذا المعنى كل من الزمخشرى والفخر الرازى[4] ومن أمثلة التغليب فى هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[5].

---

[1] تفسير أبو السعود على هامش التفسير الكبير، ج ٥، ص ٣٨٣.

[2] الذاريات : ٢٤.

[3] طه : ٦٩.

[4] الكشاف، ج ٢، ص ٥٤٥، والتفسير الكبير، ج ٦، ص ٥٢.

[5] الحج : ٥.

فقد ورد التعبير بالإفراد في قوله "طفلا" وسياق الظاهر الجمع "أطفالاً" وقد أشار ابن جنى إلى سر التعبير بالإفراد فى الآية بأنه قد حسن لفظ الواحد هنا لأنه موضع تصغير بشأن الإنسان وتحقير لأمره، فلاقى به ذكر الواحد لذلك، ولقلته من الجماعة وعنده أيضًا أنه يتلاقى فى احتقاره وقلة شأنه، بقلة شأن المفرد عن الجمع، فضآلة اللفظ علامة على ضآلة المعنى[١].

ويرى المفسرون[٢] أن سر الإفراد فى الآية الدلالة على الجنس، أو باعتبار كل واحد منهم فيحتمل أن يخرج كل واحد طفلاً كقوله تعالى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[٣] .

وهذا الرأى ما نميل إليه، ويعتبر أدق من نظرة ابن جنى.

---

(١) المحتسب لابن جنى، ج ٢، ص ٣٦١.

(٢) التفسير الكبير، ج ٦، ص ١٤٥، وانظر تفسير أبو السعود، ج ٧، ص ١١٣.

(٣) التحريم : ٤.

الفصل الرابع

أسرار التثنية فيما ظاهره الإفراد

أسرار التثنية فيما ظاهره الإفراد

هو لون من ألوان التغليب المراد به أن يأتى التعبير بصيغة التثنية وظاهر السياق التعبير بالإفراد.

وقد عرف العرب هذا اللون، فجاء فى شعرهم ونثرهم خاصة عند مخاطبة الصديق والرفيق، أو التجريد.

ومن ذلك قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فهو من قبيل التجريد حيث جرد الشاعر من نفسه إنسانًا آخر وخاطبه بضمير المثنى، والغرض البلاغى منه الاستئناس فى الرحلة الطويلة، حيث الصحراء المترامية الأطراف. وقوله أيضًا :

خليلى مرابى على أم جندب نفضى لبانــات الفؤاد المعذب

ثم قال :

ألم تر أنى كلما جئت طارقًا وجدت بها طيبا وإنْ لم تطيب

فقال ألم ترِ، فرجع إلى الواحد وأول كلامه اثنان.

وقول آخر :

فقلت لصاحبــىَّ لا تحبانا ينزع أصولــه واجتز شــيحا

وقول الشاعر :

فإنْ تزجراني يا ابن عفان أنزجر

وإن تدعــان أحــم عرضًا ممنعًا

يعلق عليه الفراء بقوله : إنّ الرجل أدنى أعوانه فى إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرفقة أدنى ما يكونون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى أكثر شيئًا قيلاً : يا صاحبى، يا خليلى، فهم يؤمرون الواحد والقوم بما يؤمر به الإثنان فيقول للرجل : قوما عنّا[1].

وما ارتأه الفراء أكده "الرضى" فى شرح الكافية من أنّ الشعراء يعدلون عن التعبير بالمفرد إلى التثنية خاصة فى مخاطبة الرفيق والصديق، لأن أكثر الرفقاء ثلاثة. فكل واحد منهم يخاطب صاحبيه فى الأغلب، فيخاطب الواحد أيضًا مخاطبة الإثنين لتمرن ألسنتهم عليه[2].

ومنه قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[3] وإنما يخرج من أحدهما، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[4] وإنما تخرج الحلية من "الملح" وقد غلط فى هذا المعنى أبو ذؤيب الهذلى حيث قال يذكر الدرة :

فجاء بها ما شئت من لطمية   يدوم الفرات فوقها ويموج

---

[1] معانى القرآن للفراء، ج ٣، ص ٧٨.

[2] شرح الكافية، ج ٢، ص ١٧٧، وانظر أسلوب التغليب د/ محمود صفا، وانظر الفوائد فى مشكل القرآن، ص ١١٨.

[3] الرحمن : ٢٢.

[4] فاطر : ١٢.

والفرات لا يدوم فوقها، وإنما يدوم الأجاج.

وقال "أبو على" فى قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[١]، بأن ظاهر اللفظ يقتضى أن يكون من مكة والطائف جميعًا، ولما لم يمكن أن يكون منها دل المعنى على تقدير "رجل من إحدى القريتين"، وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[٢] أى فى إحداهن[٣]، وقوله تعالى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾[٤] والناسى كان يوشع، بدليل قوله لموسى ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾[٥] ولكن أضيف النسيان لهما جميعًا لسكوت موسى عنه.

وقوله تعالى : ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾[٦] ، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾[٧] .

فالجناح على الزوج لأنه أخذ ما أعطى، قال أبو بكر الصيرفى المعنى : فإن خيف من أحدهما ذلك جازت الفدية، وليس الشرط أن يجتمعا على عدم الإقامة. وقوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٨] .

---

[١] الزخرف : ٣١.

[٢] نوح : ١٦.

[٣] البرهان، ج ٢، ص ٣.

[٤] الكهف : ٦١.

[٥] الكهف : ٦٣.

[٦] النساء : ١١.

[٧] البقرة : ٢٢٩.

[٨] الرحمن : ٤٦.

وقوله تعالى : ﴿جَنَّتَيْنِ﴾[1] ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ فقيل : جنة واحدة بدليل قوله تعالى آخر الآية ﴿ودخل جنته﴾ فأفرد بعد ما ثنى.

وقوله : ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾[2] فإنه ما ثنى هنا إلا الإشعار بأن لها وجهين، وأنك إذا نظرت عن يمينك ويسارك رأيت فى كلتا الناحيتين ما يملأ عينك قرة، وصدرك مسرة[3] .

وقوله تعالى : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[4] وإنما المتخذ إلهًا عيسى دون مريم، فهو من باب "والنجوم الطوالع"[5] قاله أبو الحسن، وحكاه عنه ابن جنى فى كتاب "القد" وعليه حمل ابن جنى وعنده قول امرئ القيس.

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ويؤيده قوله بعده :

أصاح ترى برقًا اريك وميضه[6]

كلمع اليدينَ فى حبى مكلل

---

[1] الكهف : ٣٢.

[2] الكهف : ٣٣.

[3] البرهان، ج ٣، ص ٥.

[4] المائدة : ١١٦.

[5] إشارة إلى بيت الفرزدق.

[6] ديوانه، ص ٢٤.

وقول الفرزدق :

عشية سال المربدان كلاهما

سحابة موت بالسيوف الصوارم[1]

وإنما هو مربد البصرة فقط.

وقول جرير :

لما مررت بالديرين أرقني   صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

قالوا : أراد "دير الوليد" موضع بالشام" قال ياقوت فثناه باعتبار ما حوله.

يقول الفراء في سبب الخطاب بصيغة المثنى عند الشعراء : «وترى أصل ذلك أن الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة نفر، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء قيلا» يا صاحبي ويا خليلي[2]، ويؤكد "الرضي" وجهة نظر الفراء في تعليل سبب عدول الشعراء في التعبير عن المفرد بصيغة المثنى فيقول : «لأن أكثر الرفقاء ثلاثة، فكل منهم يخاطب صاحبيه في الأغلب، فيخاطب الواحد أيضًا مخاطبة الاثنين لتمرن ألسنتهم عليه»[3].

هذا بالنظر إلى قول الشعراء، أما آيات القرآن الكريم التي عبر فيها بلفظ المثنى، فالبلاغيون يلتمسون لها علة أخرى، وهي إرادة التوكيد، فيكون ذلك إما بمنزلة تقسيم الشيء الواحد إلى شيئين ثم الحديث عنهما، وفي ذلك من التأكيد مالا نجده إذا عبرنا عنه بلفظ المفرد.

---

(1) ديوانه، ص ٨٦١.

(2) الصاحبي لابن فارس، ١٨٦.

(3) شرح الكافية، ج ٢، ص ١٧٧.

وإما أن يكون بمثابة تكرار الفعل، ثم امتزاج الفعلين وصار حضور أحدهما حضور للآخر، فقوله تعالى : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ بمثابة تكرار الفعل وكأنه قال : "ألق ألق" فكأن تثنية الفاعل تقوم مقام تكرار الفعل، ويمثل ذلك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ أى ارجعنى، ارجعنى، والتكرار يعطى المعنى قوة وتأكيدًا، ويزيده فضلاً وتأثيرًا[1].

وهذا هو السر البلاغى فى العدول عن التعبير بالمفرد إلى المثنى.

---

[1] فن البلاغة، ص ٣٠٤ د/ عبد القادر حسين.

الفصل الخامس

أسرار الجمع فيما ظاهره الإفراد

أسرار الجمع فيما ظاهره الإفراد

وهو لون من ألـوان التغليب المـراد بـه، أن يـأتى التعبير بصيغـة الجمع وظاهر السياق التعبير بالإفراد.

وقد عرف العرب هذا الأسلوب وكان واضحًا فى نثرهم وشعرهم، فمن ذلك قولهم : شابت مفارقه وليس له إلا مفرق واحد.

وقول امرئ القيس فى وصف الفرس :

تزل الغلام الخف عن صهواته

كمـا زلـت الصفـاء بالمتنـزل

وليس له إلا صهوة واحدة.

ومنه قول الآخر :

ومثلك معجبة بالشباب سال العبير بأجيادها

وليس له إلا جيد واحد[1].

وهذا اللون ظهر فـى أساليب القرآن الكريم، كمـا جـاء فـى قولـه تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[2].

ورد التعبير بصيغة الجمع فى "قتلتم" والمعنى على الإفراد.

وقد علق على الآية "صاحب روح المعانى" إذ يقول : القاتل واحد، ونسبة القتل إلى المخـاطبين لوجوده فيهم علـى طريقـة العـرب فـى نسبة

---

[1] عقود الجمان للسيوطى، ص ١١٤ - ١١٦.

[2] البقرة : ٧٢.

الأشياء إلى القبيلة إذا وجدت من بعضها ما يذم به أو يمدح، وقال : بعضهم، إنه لا يحسن إسناد فعل أو قول صدر عن البعض إلى الكل إلا إذا صدر عنه بمظاهرتهم أو رضا منهم غير مسلم، وأشار إلى السر في ذلك بقوله : ونكته إسناده إلى الكل الإشارة إلى أن الكل بحيث لا يبعد صدور القتل منهم لمزيد حرصهم وكثرة طمعهم وعظم جرأتهم.

فهم كأصابع الكفين طبعا وكل منهم طمع جسور

وقيل إن القاتل جمع وهم ورثة المقتول، وقد روي أنهم اجتمعوا على قتله، ولهذا نسب القتل إلى الجميع[١].

وهو ما أشار إليه أبو حيان من الاحتمالين في الآية. ومن أمثلة هذا الأسلوب ما جاء في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٢].

ورد التعبير بالجمع في كلمة "الناس" والمعنى على الإفراد، وقد وضح "فخر الدين الرازي" في التفسير الكبير[٣] المقصود من هذه الآية فقال : القائل هو نعيم بن مسعود وجاز إطلاق لفظ الناس على الإنسان الواحد، لأنه إذا قال الواحد قولاً وله أتباع يقولون مثل قوله أو يرضون بقوله، حسن حينئذ إضافة ذلك الفعل إلى الكل، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[٤] ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[٥]

---

[١] روح المعاني للألوسي، ج ١، ص ٢٦٥، وانظر البحر المحيط لأبي حيان، ج ١، ص ٢٥٩.

[٢] آل عمران : ١٧٣.

[٣] التفسير الكبير، ج ٥، ص ٩٩.

[٤] البقرة : ٧٢.

[٥] البقرة ٥٥.

وهم لم يفعلوا ذلك. وإنما فعله أسلافهم، إلا أنه أضيف إليهم لمتابعتهم له على نصيبهم في تلك الأفعال. فكذا هنا يجوز أن يضاف القول إلى الجماعة الراضين بقول ذلك الواحد[1] . فالجمع هنا إنما جاء تعبيرًا عن مقتضى الحال والمقام.

ونظير الآية السابقة قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[2] .

ورد التعبير بالجمع في الناس والمعنى على الإفراد كما جاء في كتب اللغة والتفسير.

وفخر الدين الرازي[3] : يعد هذه الآية من التغليب على اعتبار رأي الأكثرية في أن المراد من الناس هو سيدنا محمد ﷺ، ويقول : وهو قول ابن عباس والأكثرين، وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد، لأنه اجتمع عنده من خصال الخير ما لا يحصل إلا متفرقًا في الجمع العظيم، ومن هنا يقال فلان أمة وحده، أي يقوم مقام أمه، قال تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾[4] .

ويرى الزمخشري في كشافه أن التعبير في الآية موافقًا للسياق الظاهر، إذ يقول : "بل يحسدون رسول الله والمؤمنين" على إنكار الحسد واستقباحه[5] .

---

[1] التفسير الكبير، ج ٥، ص ٩٩.

[2] النساء : ٥٤.

[3] التفسير الكبير، ج ٣، ص ٢٣٧.

[4] النحل : ١٢٠.

[5] الكشاف، ج ١، ص ٥٣٤.

ومن أمثلة هذا الأسلوب ما جاء في قوله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[١].فقد ورد التعبير بالجمع في قوله "رسل" وظاهر السياق الإفراد.

يرى الفراء في معاني القرآن : أن الرسل من الإنس خاصة فكيف قال الإنس والجن ؟ قيل هذا كقوله : «مرج البحرين يلتقيان ثم قال يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان»[٢].

ورأى الفراء أحد احتمالات الزمخشري في تعليقه على سر الجمع في الآية.

فعنده أن بعضهم تعلق بظاهر الآية، ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم، لأنهم به آنس وله آلف، أو أن الرسل من الإنس خاصة، وإنما قيل رسل منكم، لأنه لما جمع الثقلين في الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما كقوله تعالى : ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وعن الكلبي كانت الرسل قبل أن يبعث سيدنا محمد ﷺ - يبعثون إلى الإنس ورسول الله بعث إلى الإنس والجن[٣].

أما الفخر الرازي في تفسيره لا يستبعد أن يقال إن الرسل كانوا من الإنس إلا أنه تعالى كان يلقي الداعية في قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل، ويأتي قومهم من الجن ويخبرونهم بما سمعوه من

---

[١] الأنعام : ١٣٠.

[٢] معاني القرآن للفراء، ج ١، ص ٣٥٤.

[٣] الكشاف، ج ٢، ص ٥١.

الرسل وينذرونهم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ فأولئك الجن كانوا رسل الرسل، فكانوا رسلاً لله تعالى والدليل عليه أنه تعالى سمى رسل عيسى رسل نفسه فقال : "إذ أرسلنا إليهم اثنين"[1].

ويعلق أبو حيان بما يخرج الآية من التغليب وإن التعبير فيها وارد على سياق الظاهر من أن من الجن رسلاً إليهم، كما أن من الإنس رسلاً إليهم.

فقيل : بعث الله رسولاً واحدًا من الجن إليهم اسمه "يوسف" وقيل رسل الجن هم رسل الإنس فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسل رسله ويؤيده قوله : ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ ويروى أن قومًا من الجن استمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم فأخبروهم بما جرى لهم مع الرسل، فيقال لهم رسل الله وإن لم يكونوا رسله حقيقة.

وعلى هذين القولين يكون الضمير راجعًا إلى الجن والإنس، ويقول : وقد تعلق قوم بهذا الظاهر فزعموا أن الله تعالى بعث إلى الجن رسلاً منهم ولم يفرقوا بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم لأنهم به آنس وآلف[2].

وينقل أبو حيان عن آخرين ما يجعل الآية من التغليب وعبارته فى ذلك، وقال مجاهد والضحاك الرسل من الإنس دون الجن، ولكن لما كان النداء لهما والتوبيخ معًا جرى الخطاب عليهما على سبيل التجوز المعهود فى كلام العرب تغليبًا للإنس لشرفهم[3].

---

[1] التفسير الكبير، ج ٤، ص ١٥٢.

[2] البحر المحيط، ج ٤، ص ٢٢٢، وانظر أسلوب التغليب د/ صفاء ص ٩٢ – ٩٣.

[3] البحر المحيط، ج ٤، ص ٢٢٢.

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[١] إلى قوله : ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾[٢] قال أبو بكر الصيرفي، فهذا خطاب للنبي ﷺ وحده. إذ لا نبي معه ولا بعده[٣].

ومثله قوله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٤]، وهذا مما لا شريك فيه، والحكمة في التعبير بصيغة الجمع، أنه لما كانت تصاريف أقضيته سبحانه وتعالى : تجرى على أيدى خلقه نزلت أفعالهم منزله قبول القول بمورد الجمع.

وجعل منه ابن فارس قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[٥] والرسول كان واحدًا بدليل قوله تعالى : ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾[٦].

وفيه نظر، من جهة أنه يحتمل مخاطبة رئيسهم، فإن العادة جارية لاسيما من الملوك ألا يرسلوا واحدًا.

ومنه : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾[٧]. ورد التعبير بصيغة الجمع في قوله "الملائكة" والمعنى على الإفراد، إذ المراد جبريل من الملائكة.

---

[١] المؤمنون : ٥١.

[٢] المؤمنون : ٥٤.

[٣] البرهان، ج ٣، ص ٧.

[٤] الزخرف : ٣٢.

[٥] النمل : ٣٥.

[٦] النمل : ٣٧.

[٧] النحل : ٢.

وقد ذكر "الفخر الرازى"[١] بأنه قد روى عن عطاء عن ابن عباس قال : يريد بالملائكة جبريل وحده.... ويرى احتمالاً آخر فى أن المراد بالروح هنا جبريل عليه السلام والباء فى قوله "بالروح" بمعنى "مع" كقولهم : خرج فلان بثيابه أى مع ثيابه، فيكون المعنى ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل، والأول أقرب، وتقرير هذا الوجه أنه سبحانه ما أنزل على سيدنا محمد جبريل وحده بل فى أكثر الأحوال كان ينزل مع جبريل عليه السلام أقوام من الملائكة، وكان ينزل على رسول الله تارة ملك الجبال، وتارة ملك البحار، وتارة رضوان وتارة غيرهم[٢] .

ويذكر أبو السعود فى تفسيره أن المراد بالملائكة جبريل عليه السلام ويقول: قال الواحدى : يسمى الواحد بالجمع إذا كان رئيسًا أو هو ومن معه من حفظة الوحى بأمر الله تعالى[٣] .

والحقيقة أن "جبريل" هو المراد بالروح المعبر عنه بالملائكة جميعًا، فقد اضطلع بمهمة إنزال القرآن على سيدنا محمد ﷺ وفيه الهداية والبشارة للمؤمنين. ومنه التصديق لما جاء فى الكتب السماوية، فلابد أن تكون منزلته عظيمة وشأنه كبيرًا بين غيره من الملائكة وهو بهذا المعنى يعدل مجموعة من الملائكة دُون المَلَك، ومن هنا جاء التعبير عنه بالجمع فى "ملائكة".

والأمثلة القرآنية كثيرة ومتعددة، وهدفنا من هذه الدراسة هو محاولة الكشف عن السر البلاغى لهذه الأساليب، وإن كان علماء البلاغة

---

[١] التفسير الكبير، ج ٩، ص ٢٨٦.

[٢] التفسير الكبير، ج ٩، ص ٢٨٧.

[٣] تفسير أبى السعود، ج ٦، ص ٢٩٨، وانظر أسلوب التغليب د/ صفا، ص ٩٩ – ١٠٠.

قد وقفوا عليها، وأوضحوا غموضها، وبينوا أن التعبير بالجمع مكان المفرد، سببه العدول لإرادة التعظيم والتقدير في كل موقع حسب المقام والمقتضى.

ويذكر السيوطي في معتركه[1] لمقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضي مقابلة كل فرد من هذا بكل فرد من هذا كقوله تعالى : ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾[2] أي استغشى كل منهم ثوبهم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[3] أي كل من المخاطبين أمه، ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾[4] أي كل في أولاده، ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾[5] أي كل واحدة ترضع ولدها.

وتارة يقتضي ثبوت الجمع لكل فرد من أفراد المحكوم عليه نحو ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾[6] . وجعل منه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾[7] .

وتارة يحتمل الأمرين، فيحتاج إلى دليل بعين أحدهما. وأما مقابلة الجمع بالمفرد فالغالب ألا يقتضي تعميم المفرد، وقد يقتضيه كما في قوله

---

(1) معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٨٤.

(2) نوح : ٧.

(3) النساء : ٢٣.

(4) النساء : ١١.

(5) البقرة : ٢٣٣.

(6) النور : ٤.

(7) البقرة : ٢٥.

تعالى : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[١] . المعنى على كل واحد لكل يوم طعام مسكين، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾[٢] لأنه على كل واحد منهم ذلك.

---

[١] البقرة : ١٨٤.

[٢] النور : ٤.

الفصل السادس

أسرار الجمع فيما ظاهره التثنية

أسرار الجمع فيما ظاهره التثنية

وهذا أسلوب من أساليب التغليب المراد به أن يكون التعبير بصيغة الجمع وسياق الظاهر يقتضى التثنية.

وقد وردت شواهد كثيرة فى آيات القرآن الكريم، نذكر منها على سبيل المثال :

ففى قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾[1].

فقد ورد التعبير بالجمع فى "أيديهما" وسياق الظاهر التثنية أى يديهما.

ويرى الفراء فى معانى القرآن أن السر فى التعبير بالجمع فى هذه الآية والمراد به التثنية وإنما قال أيديهما لأن كل شىء موحد من خلق الإنسان إذا ذكر مضافًا إلى اثنين فصاعدًا جمع فقيل : هشمت رؤوسهما وملأت ظهورهما وبطونهما[2].

أما أبو حيان التوحيدى فيقول نقلاً عن الزمخشرى أيديهما يديهما ونحوه فقد صغت قلوبكما، اكتفى بتثنية المضاف إليه من المضاف، وأريد باليدين اليمينان بدليل قراءة عبد الله : والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم، ثم يقول : وسوى بين أيديهما وقلوبكما وليس بشيئين، لأن يأتى صغت قلوبكما بطرفيه وضع الجمع موضع التثنية. وهو ما كان اثنين من شيئين كالقلب والأنف والوجه والظهر[3] .

---

(1) المائدة : ٣٨.

(2) معانى القرآن للفراء، ج ١، ص ٣٨٧.

(3) البحر المحيط لأبى حيان، ج ٣، ص ٤٨٣.

وأما إن كان في كل شيء منها اثنان كاليدين والأذنين والفخذين، فإن وضع الجمع موضع التثنية لا يطرد، وإنما يحفظ ولا يقاس عليه، لأن الذهن إنما يتبادر إذا أطلق الجمع لما يـ دل عليه لفظه، فلو قيل : قطعت آذان الزيدين فظاهره قطع أربعة الآذان، وهو استعمال اللفظ في مدلوله.

وينقل عن "ابن عطية" قوله : جمع الأيدى من حيث كان لكل سارق يمين واحدة، وهى المعرضة للقطع فى السرقة، وللسارق أيد، وللسارقات أيد كأنه قال : اقطعوا أيمان النوعين، فالتثنية للضمير إنما هى للنوعين، وظاهر قوله أيديهما أنه لا يقطع الرجل، فإذا سرق قطعت يده اليمنى، ثم إن سرق قطعت يده اليسرى، ثم إن سرق عزر وحبس وهو مذهب مالك والجمهور[1].

ومن أمثلة هذا الأسلوب قوله تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾[2].

فقد ورد التعبير بالجمع فى قوله : "لحكمهم" وسياق الظاهر التثنية.

يحتج "الفخر الرازى" على من قال : «أقل الجمع اثنان بقوله تعال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ مع أن المراد داود وسليمان والجواب أن الحكم كما يضاف إلى الحاكم فقد يضاف إلى المحكوم له، فإذا أضيف الحكم إلى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الاثنين، وقرئ وكنا لحكمهما شاهدين»[3].

---

[1] البحر المحيط، ج ٣، ص ٤٨٣.

[2] الأنبياء : ٧٨.

[3] التفسير الكبير، ج ٦، ص ١١٨.

أما أبو حيان[١] فكان له رأى آخر من أن الضمير فى "لحكمهم" عائد على الحاكمين والمحكوم لهما وعليهما وليس المصدر هنا مضافًا لا إلى الفاعل ولا مفعول ولا هو عامل فى التقدير فلا ينحل بحرف مصدرى والفعل. بل هو مثل له ذكاء الحكمة وذهن الأذكياء، وكأن المعنى : وكنا للحكم الذى صدر فى هذه القضية شاهدين، فالمصدر هنا لا يراد به الكلام، بل يراد به وجود الحقيقة[٢] .

ويرى أبو السعود : أن المقصود الحاكمين والمتحاكمين كليهما، فالإضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع.

وهذا الرأى هو ما نميل إليه.

ومن أسرار التعبير بالجمع وظاهرة التثنية، نجد الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٣] فقد ورد التعبير بالجمع فى "طائعين" وظاهر السياق التثنية.

يقول الزمخشرى معلقًا على هذه الآية الكريمة «هلا قيل طائعتين على اللفظ، أو طائعات على المعنى لأنهما سماوات وأرضون ؟ قلت لما جعلن مخاطبات ومحببات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين فى مواضع طائعات نحو قوله : "ساجدين"»[٤] .

---

[١] البحر المحيط، ج ٦، ص ٣٣١.

[٢] البحر المحيط، ج ٦، ص ٣٣١.

[٣] فصلت : ١١.

[٤] الكشاف، ج ٣، ص ٤٤٦.

وينقل عنه الفخر الرازى مفسرًا قوله : «فالغرض المعنى كما يقول الزمخشرى يعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدنا كما أرادهما وجاءتا فى ذلك كالمأمور المطيع، إذا ورد عليه فعل الأمر نبه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما، فقالتا أتينا على الطوع لا على الكره[1].

والغرض تصوير أثر قدرته فى المقدورات من غير أن يحقق شيئًا من الخطاب والجواب.

والذى أراه أن التعبير بجمع المذكر الذى لا يكون إلا للعقلاء أو وصف للعقلاء فى قوله "طائعين" جاء مناسبًا للسياق.

ويمكن أن نجمل القول من أن بلاغة هذا التعبير يرجع إلى قصد المبالغة بجعل كل واحد من الشيئين عدة أشياء أو إرادة المبالغة فى واحد من الاثنين المذكورين يجعله لكبر شأنه وجلالة قدره كأنه أشياء فتسوغ لنفسك جمع المثنى، وبذلك نعود لنفس العلة البلاغية فى وضع الجمع موضع المفرد وهى المبالغة فى التعظيم والتقدير[2]

---

[1] البحر المحيط، ج ٧، ص ٤٨٦، وانظر التفسير الكبير، ج ٧، ص ٥٧٣.

[2] عقود الجمان، ج ١، ص ١١٥، وانظر فن البلاغة، ص ٣١٠ د/ عبد القادر حسين.

الفصل السابع

أسرار التثنية فيما ظاهره الجمع

أسرار التثنية فيما ظاهره الجمع

هذا اللون من ألوان التغليب ذكره ابن جنى ووقف على مغزاه البلاغى، واستعان فى ذكره بما نقله عن الخليل، وهذا اللون لم نر له مثالاً من القرآن عند الخليل أو سيبويه أو أبى عبيدة أو الفراء، رغم أن القرآن الكريم ذكر بعض هذه الاستعمالات[1] :

كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾[2] أى "كرات" فهو جمع، لأن البصر لا يحسر إلا بالجمع، وجعل منه بعضهم ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾[3].

فقد ورد التعبير فى الآية بالتثنية فى "كرتين" وسياق الظاهر الجمع أى كرات.

ويعلق الرازى[4] على هذه الآية بقوله : إن التثنية فيها أمر بتكرير البصر فى خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع هل يجد فيه عيبًا وخللاً؟

بمعنى إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل والعيب، بل يرجع إليك خاسئًا أو مبعدًا من قولك : خسئت الكلب، إذا باعدته فعند المبرد "الخاسئ" المبعد المصغر، وعند ابن عباس "الخاسئ هو الذى لم ير ما يهوى، وأما الحسير فهو الكليل، وقد ذكر الواحد هنا احتمالين :

---

[1] فن البلاغة، ص ٣٠٤ د/ عبد القادر حسين.

[2] الملك : ٤.

[3] البقرة : ٢٢٩.

[4] التفسير الكبير، ج ٨، ص ١٧٣.

الأول : أن يكون الحسير مفعولاً من حسر العين بُعد المرئ.

الثاني : ما قاله الفراء أن يكون فاعلاً من الحسور الذى هو الإعياء، والمعنى أنه وإن كرر النظر وأعاده فإنه لا يجد عيبًا ولا فتورًا، بل البصر يرجع خاسئًا مع الإعياء والكلال.

فالمراد يوضع المثنى موضع الجمع أن يتكرر الشيء مرة بعد مرة وفى ذلك من التأكيد ما لا نجده فى التعبير بالجمع دفعة واحدة، ويبين ابن جنى هذا المغزى مستعينًا فى ذلك بتفسير الخليل فيقول فى قوله تعالى : ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[1].

لفظها لفظ التثنية ومعناها الجماعة، أى أن كل اثنين فصاعدًا من المسلمين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، ألا ترى أن هذا حكم عام فى الجماعة وليس يختص به منهم اثنان مقصودان، ففيه – إذًا شيئان : أحدهما لفظ التثنية يراد به الجماعة، والآخر لفظ الإضافة لمعنى الجنس وكلاهما قد جاء منه قولهم لبيك وسعديك، فليس المراد هنا إجابتين ثنتين، ولا إسعادين اثنين، بل معناه كلما كنت فى أمر فدعوتنى له أجبتك إليه وساعدتك عليه. وكذلك قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[2] ونعم الله أكثر من أن تحصى[3]، فوضع المثنى موضع الجمع قد التفت إلى سره البلاغى ابن جنى، وإن كان قد استعان فى تفسيره لبيان هذا السر بما ذكره الخليل بن أحمد.

---

(1) الحجرات : ١٠.

(2) المائدة : ٦٤.

(3) المحتسب، ج ٢، ص ٢٧٩، وانظر فن البلاغة.

ومن أمثلة هذا اللون ما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾[1] .

فقد ورد التعبير بالتثنية فى قوله "خصمان"، وسياق الظاهر الجمع فالآية من التغليب.

وقد ذهب الفراء فى قوله : وربما ذهبت العرب بالاثنين إلى الجمع، كما يذهب بالواحد إلى الجمع، ألا أنك تخاطب الرجل فتقول : ما أحسنتم ولا أجملتم، وأنت تريده بعينه، ويقول للرجل الفتيا يفتى بها نحن كذا وكذا وهو يريد نفسه[2] .

والمفسرون لهذه الآية يرون أن سر التثنية فى التعبير يرجع إلى ظاهرة لغوية هى : التعبير بالمصدر "خصم" لأن المصدر لا يثنى ولا يجمع.

أما الزمخشرى فيعلق على هذه الآية بقوله : والخصم والخصماء، وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف، قال تعالى : ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ لأنه مصدر فى أصله تقول : خصمه خصمًا كما تقول ضافه ضيفًا، ثم يقول فإن قلت، هذا جمع وقوله : خصمان، تثنية فكيف استقام ذلك ؟ قلت معنى خصمان : فريقان خصمان والدليل عليه قراءة من

---

[1] ص : ٢١ - ٢٢.

[2] معانى القرآن للفراء، ج ٢، ص ٣٩١.

قرأ : خصمان بغى بعضهم على بعض ونحو قوله تعالى : ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[١] فإن قلت : فماذا تصنع بقوله : "إن هذا أخى له" وهو دليل على اثنين ؟ قلت هذا قول البعض المراد بقوله : "بغى بعضنا على بعض" فإن قلت : فإذا كان التحاكم من اثنين كيف سماهم جميعًا خصمًا فى قوله : نبأ الخصم وخصمان ؟ قلت : لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين فى صورة الخصم صحت التسمية[٢] .

أما صاحب البحر المحيط فله رأى فى تقليل التعبير بالتثنية فى هذه الآية من أن المصدر لا يثنى ولا يجمع، يقول : فالخبر أصله مصدر فلذلك يصلح للمفرد والمذكر وفروعهما وهنا جاء الجمع. ولذلك قال : إذا تسوروا إذ دخلوا... كما قال الشاعر :

وخصم يعدون الدخول كأنهم

قروم غيارى كل أزهر مصعب

ويكشف عن تعليله للتثنية بقوله : والظاهر أنهم كانوا جماعة، فلذلك أتى بضمير الجمع فإن كان المتحاكمان اثنين فيكون قد جاء معهم غيرُهم على جهة المعاضدة أو المؤانسة، ولا خلاف أنهم كانوا ملائكة، كذا قال بعضهم... ويقول : وقيل معنى خصمان فريقان فيكون تسوروا، ودخلوا عائد على الخصم الذى هو جمع الفريقين، ويدل على هذا أن "خصمان" بمعنى فريقان فى قراءة من قرأ، بغى بعضهم على بعض".

---

[١] الحج : ١٩.

[٢] الكشاف، ج ٣، ص ٣٦٨.

ويؤيد فخر الدين الرازى وجهة نظر القائل بأن أقل الجمع اثنان، وعبارته فى ذلك : أقل الجمع اثنان عند بعض الناس، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع فى هذه الآيات فى أربعة مواضع أحدها، قوله تعالى : ﴿إذ تسوروا المحراب﴾ وثانيتهما قوله تعالى ﴿إذ دخلوا﴾ وثالثتهما قوله ﴿منهم﴾ ورابعها قوله : ﴿قالوا﴾.

فهذه النقاط الأربع كلها صيغ الجمع، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان، فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان، ثم يقول : والجواب لا يمنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعا كثيرين لأنا بينا أن الخصم إذا جعل اسمًا فإنه لا يثنى ولا يجمع [١].

ومثال ذلك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢].

فقد ورد التعبير فى الآية الكريمة بصيغة التثنية فى "أخويكم" وظاهر السياق الجمع.

أما ابن جنى فيذكر بجانب التغليب فيها لفظ الإضافة لمعنى الجنس وعبارته فى ذلك ألا ترى أن هذا حكم عام فى الجماعة، وليس يختص به منهم اثنان مقصودان ؟ ففيه إذًا شيئان : أحدهما : لفظ التثنية يريد به الجماعة، والآخر : لفظ الإضافة لمعنى الجنس وكلاهما قد جاء منه قولهم

---

[١] التفسير الكبير، ج ٧، ص ١٨٢.

[٢] الحجرات : ١٠.

"لبيك وسعديك" فليس المراد منه إجابتي ثنتين ولا إسعادين اثنين بل معناه: كلما كنت فى أمر فدعوتنى له أجبتك إليه وساعدتك عليه[١] .

و"شهاب الدين الخفاجى" يرى أن الآية من التغليب معللاً أنه خص الاثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق. ويرى احتمالاً آخر فى أن المراد بالأخوين "الأوس والخزرج" وقد سمى كل منهما أخًا لاجتماعهم فى الحد الأعلى، ويؤيده بقراءة "أخوتكم وأخواتكم"[٢] ويتناول "الفخر الرازى" هذه الآية، فكشف عن السر فى التثنية بوجهة نظر دقيقة.

وأبان لما قال "وإن طائفتان من المؤمني اقتتلوا" كاف لظان أن يظن أو لمتوهم أو يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، أما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة.

فلا يؤمر بالإصلاح، وكذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال، وأما إذا كان دون الاقتتال كالشتائم والتسافه، فلا يجب الإصلاح فقال بين إخونكم وإن لم تكن الفتنة عامة، وإن لم يكن الأمر عظيمًا كالقتال، بل لو كان بين رجلين من المسلمين أو فى اختلاف فاسعوا فى الإصلاح[٣] .

وعند الزمخشرى أن التعبير بالاثنين فى الآية لأن أقل من يقع الشقاق يهم اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأن الفساد فى شقاق الجمع أكثر منه فى شقاق الاثنين[٤] .

وهذا اللون من التغليب أمثلته فى القرآن الكريم محدودة، بخلاف ما جاء فى الألوان الأخرى السابقة واللاحقة.

---

[١] المحتسب لابن جنى، ج ٢، ص ٣٧٩.

[٢] حاشية الشهاب على البيضاوى، ج ٨، ص ٧٩.

[٣] التفسير الكبير، ج ٧، ص ٥٧٤.

[٤] الكشاف، ج ٣، ص ٥٦٤.

الفصل الثامن

تغليب المتكلم على المخاطب
والمخاطب على الغائب

تغليب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب

يتناول الزركشى[1] فى برهانه هذا القسم من أقسام التغليب ويذكر شواهد قرآنية وعربية نعرض منها ما جاء عنده.

فمثلاً يقال : أنا وزيد فعلنا، وأنت وزيد تفعلان، ومنه قوله تعالى : ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[2] بتاء الخطاب غلب جانب "أنتم" على جانب "قوم" والقياس يجئ بالياء، لأنه وصف القوم، وقوم اسم غيبة، ولكن حسن آخر الخطاب، وصفًا لـ "قوم" لوقوعه خبرًا عن ضمير المخاطبين، قاله ابن الشجرى.

ولو قيل : إنه حال لـ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾[3] لأن فى الضمير الخطاب معنى الإشارة لملازمته لها، أو لمعناها لكان متجهًا وإن لم تساعده الصناعة، لكن يبعده أن المراد وصفهم بجهل مستمر، لا مخصوص بحال الخطاب ولم يقل "جاهلون" إيذانًا بأنهم يتجددون عند كل مصيبة لطلب آيات جهلهم.

وقال أبو البركات بن الأنبارى : ولو قيل : إنما قال : "تجهلون" بالتاء –لأن قوم هو "أنتم" فى المعنى فلذلك قال : "تجهلون" حملاً على المعنى– لكان حسنًا، ونظيره من رجز لعلى بن أبى طالب ك أنا الذى سمتنى أمى حيدرة.

---

[1] البرهان، ج ٣، ص ٣٠٣.

[2] النمل : ٥٥.

[3] النمل : ٥٢.

لويث غاب كريه المنظرة   أوفيهم بالصاع كيل السندرة

بالياء حملاً على "أنا" لأن "الذى" هو "أنا" فى المعنى، ومنه قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾[1] غلب فيه جانب "أنت" على جانب "من" فأسند إليه الفعل، وكأن تقديره "فاستقيموا" فغلب الخطاب على الغيبة، لأن حرف العطف فصل بين المسند إليهم الفعل، فصار كما ترى[2].

قال صاحب الكشاف[3] تقديره : فاستقم كما أمرت وليستقم كذلك من تاب معك.

وما قلنا أقل تقديرًا من هذا فاختر أيهما شئت وقوله تعالى : ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾[4] فأعاد الضمير بلفظ الخطاب، وإن كان "من تبعك" يقتضى الغيبة، تغليبًا للمخاطب، وجعل الغائب تبعًا له كما كان تبعًا له فى المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعًا له فى اللفظ وهو من محاسن ارتباط اللفظ بالمعنى. وكقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5].

فإن الخطاب فى "لعلكم" متعلق بقوله "خلقكم" لا بقوله "اعبدوا"

---

[1] هود : ١١٢.

[2] البرهان، ج ٣، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

[3] الكشاف، ج ٢، ص ٥٢٨ بتصرف.

[4] الإسراء : ٦٣.

[5] البقرة : ٢١.

حتى يختص بالناس المخاطبين، إذ لا معنى لقوله "اعبدوا لعلكم تتقون" ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] فيمن قرأ بالتاء، ويجوز أن يكون المراد بـ "ما تعملون" الخلق كلهم، والمخاطب النبى وكل سامع أبدًا، فيكون تغليبًا، ولا يجوز أن يعتبر خطاب من سواه بدونه من غير اعتبار التغليب، لامتناع أن يخاطب فى كلام واحد اثنان أو أكثر من غير عطف أو تثنية أو جمع[2] .

---

[1] هود : ١٢٣.

[2] البرهان، ج ٢، ص ٣٠٤.

تغليب العاقل على غيره

بأن يتقدم لفظ يعم من يعقل ومن لا يعقل، فيطلق اللفظ المختص بالعاقل على الجميع، كما تقول : خلق الله الناس والأنعام ورزقهم، فإن لفظ "هم" مختص بالعقلاء، ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾[١] لما تقدم لفظ الدابة، والمراد بها عموم من يعقل ومن لا يعقل غلب من يعقل، فقال : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي﴾ فإن قيل هذا صحيح فى "فمنهم" لأنه لمن يعقل، وهو راجع إلى الجميع، فلم قال : "من" وهو لا يقع على العام، بل خاص بالعاقل.

قلت : "من" هنا بعض "هم" وهو ضمير من يعقل، فإن قلت : فكيف يقع على بعضه لفظ ما لا يفعل ؟ قلت : من هنا قال أبو عثمان : إنه تغليب من غير عموم لفظ متقدم، فهو بمنزلة من يقول : رأيت ثلاثة : زيدًا وعمرًا وحمارًا[٢].

وقال ابن الصائغ : هم لا تقع إلا على من يعقل، فلما أعاد الضمير على كل دابة غلب من يعقل، فقال : "هم" و"من" بعض هذا الضمير، وهو للعاقل، فلزم أن يقول "من" فلما قال : بوقوع التغليب فى الضمير، صار ما يقع عليه حكمه حكم العاقلين، فتم ذلك بأن أوقع "من".

وقوله تعالى حاكيًا عن السماء والأرض ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٣] إنما

---

[١] النور : ٤٥.

[٢] البرهان، ج ٣، ص ٣٠٥.

[٣] فصلت : ١١.

جمعهما جمع السلامة، ولم يقل : "طائعين" ولا "طائعات" لأنه أراد ائتيا بمن فيكم من الخلائق طائعين، فخرجت الحال على لفظ الجمع، وغلب من يعقل من الذكور.

وقال بعض النحويين : لما أخبر عنهما أنهما يقولان كما يقول الآدميون أشبهتا الذكور من بنى آدم، وإنما قال "طائعين" ولم يقل "مطيعين" لأنه من طعنا أى أنقذنا وليس من أطعنا، يقال : طاعت الناقة تطوع طوعا، إذا انقادت.

وقوله تعالى : ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[1] قيل : أوقع "ما" لأنها تقع على أنواع من يعقل، لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل فغلب ما لا يعقل، كان الأمر بالعكس[2]، ويناقضه "وكل له قانتون" وقال الزمخشرى : جاء بـ "ما" تحقيرًا لشأنهم وتصغيرًا، قال : "له قانتون" تعظيم.

ورد عليه ابن الصائغ بصحة وقوعها على الله عز وجل قال : وهذا غاية الخطأ.

وقوله فى دعاء الأصنام : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾[3]، وقوله : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[4]، وأما قوله : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[5]، وقوله : ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[6]، وقوله : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا

---

[1] البقرة : ١١٦.

[2] البرهان، ج ٣، ص ٣٠٦.

[3] الشعراء : ٧٢.

[4] فصلت : ٢١.

[5] الشعراء : ٤.

[6] يس : ٤٠.

﴿هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[2] ، وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[3] لما أخبر عنها بأخبار الآدميين جرى ضميرها على حد من يعقل، وكذا البواقى.

فإن قيل : فقد غلب غير العاقل على العاقل فى قوله : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾[4] فإنه لو غلب العاقل على غير العاقل لأتى بـ "من".

فالجواب أن هذا الموضع غلب فيه من يعقل، وعبر عن ذلك بـ "ما" لأنها واقعة على أجناس من يعقل خاصة كهذه الآية.

وقوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾[5] ولم يقل : "ومن فيهن" قيل لأن كلمة "ما" تتناول الأجناس كلها تناولاً عامًا بأصل الوضع، و"من" لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع، فكان استعمال "ما" هنا أولى.

يقول الزركشي : وقد يجمع فى لفظ واحد تغليب المخاطب على

---

[1] الأنبياء : ٦٥.

[2] يوسف : ٤.

[3] النمل : ١٨.

[4] النحل : ٤٩.

[5] المائدة : ١٢٠.

الغائب، والعقلاء على غيرهم، كقوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[1] .

أى خلق لكم أيها الناس من جنسكم ذكورًا وإناثًا، يذرؤكم، أى ينبتكم ويكثركم أيها الناس والأنعام فى هذا التدبير والجعل، فهو خطاب للجميع، للناس المخاطبين وللأنعام المذكورة بلفظ الغيبة، ففيه تغليب المخاطب على الغائب، وإلا لما صح ذكر الجميع -أعنى الناس والأنعام بطريق الخطاب، لأن الأنعام غيب، و(فيه) تغليب العقلاء على غيرهم، وإلا لما صح خطاب الجمع بلفظ "كم" المختص بالعقلاء ففى لفظ "كم" تغليبان، ولولا التغليب لكان القياس أن يقال : يذرؤكم وإياها[2] ، هكذا قرر كل من السكاكى والزمخشرى.

ونزعا فيه، بأن جعل الخطاب شاملاً للأنعام تكلف لا حاجة إليه، لأن الغرض إظهار القدرة وبيان الألطاف فى حق النـاس، فالخطاب مختص بهم، والمعنى يكثركم أيها الناس فى التدبير حيث مكنكم من التوالد والتناسل.

وهيأ لكم من مصالحكم ما تحتاجون إليه فى ترتيب المعاش وتدبير التوالد، وجعلها أزواجًا تبقى ببقائكم، وعلى هذا يكون التقدير : وجعل لكم من الأنعام أزواجًا وهذا أنسب بنظم الكلام مما قرروه، وهو جعل الأنعام أنفسها أزواجًا.

---

[1] الشورى : ١١.

[2] البرهان، ج ٣، ص ٣٠٧.

وقوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[١] لأنه مسوق لإظهار الاقتدار والوحدانية، فأسقط السببية، وأثبت فى الظرفية، وهذا وجه من إعجاز قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ لأن الحياة من شأنه الاستناد إليه سبحانه لا إلى غيره، فاختيرت "فى" على "الباء" لأنه مسوق لبيان الترغيب والمعنى مفهوم، والقصاص مسوق للتجويز وحسن المشروعية[٢]

---

[١] البقرة : ١٧٩.

[٢] البرهان، ج ٣، ص ٣٠٨.

تغليب المتصف بالشيء على ما لم يتصف به

ويذكر الزركشى[١] هذا الباب ويعرض شواهد قرآنية له : كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[٢] قيل : غلب غير المرتابين على المرتابين، واعترض بقوله تعالى : ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢] وهذا خطاب للكفار فقط قطعًا، فهم المخاطبون أولاً ذلك، ثم "إن كنتم صادقين" لا يتميز فيها التغليب، ثم هى شاهدة بأن المتكلم معهم يخص الجاحدين بقوله : "إن كنتم صادقين" وإذا لم يكن الخطاب إلا فيهم، فتغليب حال من لم يدخل فى الخطاب، لا عهد به فى مخاطبات العرب.

---

[١] البرهان، ج٣، ص ٣٠٨.

[٢] البقرة ٢٣.

تغليب الأكثر على الأقل[1]

بأن ينسب إلى الجميع وصف يختص بالأكثر، كقوله تعالى : ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾[2] ادخل شعيب عليه السلام فى قوله : "لتعودن" بحكم التغليب، إذ لم يكن فى ملتهم أصلاً حتى يعود إليها، ومثله قوله تعالى : ﴿إن عدنا في ملتكم﴾[3] واعترض بأن "عاد" بمعنى "صار" لغة معروفة، وأنشدوا :

فإن تكن الأيام أحسن مرة إلى فقد عادت لهن ذنوب

ولا حجة فيه، لجواز أن يكون ضمير "الأيام" فاعل "عادت" وإنما الشاهد فى قول أمية.

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبًا بماء فعاد بعد أبوالا

ويحتمل جوابًا ثالث، وهو أن يكون قولهم لشعيب ذلك من تعنتهم وبهتانهم وادعائهم أن شعيب كان على ملتهم لا كما قال فرعون لموسى، وقوله : ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾[4] كناية عن أتباعه لمجرد فائدتهم، وأنه ﷺ إن قال ذلك عن نفسه وأتباعه فقد استثنى، والمعلق بالمشيئة لا يلزم إمكانه شرعًا، تقديرًا والاعتراف بالقدرة والرجوع لعلمه سبحانه، وأنه

---

[1] البرهان، ج ٣، ص ٣٠٩.

[2] الأعراف : ٨٨.

[3] الأعراف : ٨٩.

[4] الأعراف : ٨٩.

علم العبد عصمة نفسه أدبًا مع ربه لا شططا(١).

ويقول الزركشي : ويجوز أن يراد بالعود في ملتهم مجرد المساكنة والاختلاط، بدليل قوله : ﴿إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾(٢) ونظيره ﴿إِنِّي ... وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٣) ويكون ذلك إشارة إلى الهجرة عنهم، وترك الإجابة لهم، لا جواب لهم، وفيه بعد.

تغليب الأشهر

كقوله تعالى : ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾(٤) أراد المشرق والمغرب، فغلب المشرق، لأنه أشهر الجهتين، قاله ابن الشجرى.

---

(١) البرهان، ج ٣، ص ٣١٠.

(٢) الأعراف : ٨٩.

(٣) آل عمران : ٥٥.

(٤) الزخرف : ٣٨.

تغليب الموجود على ما لم يوجد

ويذكر الزركشي في هذا الباب شواهد قرآنية : كقوله تعالى ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[1] قال الزمخشري : فإن المراد المنزل كله، وإنما عبر عنه بلفظ المضي وإن كان بعه مترقبًا، تغليبًا للموجود على ما لم يوجد.

وهذا الباب ذكرنا له شواهد كثيرة في التعبير عن الماضي بالمستقبل وعكسه.

تغليب الإسلام

كقوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾[2] قال الزمخشري[3] لأن الدرجات للعلو، والدركات للسفل، فاستعمل الدرجات في القسمين تغليبًا.

تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه كقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[4] ذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاول بها، فحصل الجمع بالواقع بالأيدي تغليبًا أشار إليه الزمخشري في آخر آل عمران[5].

ويشاكله ما أنشده الفرنوي في العامريات لصفية بنت عبد المطلب:

فلا والعاديات غداة جمع   بأيديهما إذا سطع الغبار[6]

---

(1) البقرة : ٤.

(2) الأحقاف : ١٩.

(3) الكشاف، ج ٤، ص ٢٤١.

(4) آل عمران : ١٨٢.

(5) الكشاف، ج ١، ص ٣٤٤.

(6) تفسير البحر لأبي حيان، ج ٨، ص ٥٠٣.

فائدتـــــان .

وفى ختام باب التغليب نخلص بفائدتين ذكرهما الزركشي[١].

أحدهما : جميع باب التغليب من المجاز، لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له، ألا ترى أن القانتين موضوع للذكور الموصوفين بهذا الوصف، فإطلاقه على الذكور والإناث على غير ما وضع له، وقس على هذا جميع الأمثلة السابقة.

الثانية : الغالب من التغليب أن يراعى الأشرف كما سبق ولهذا قالوا فى تثنية الأب والأم، أبوان وفى تثنية المشرق والمغرب : المشرقان، لأن الشرق دال على الوجود والغرب دال على العدم، والوجود لا محالة أشرف وكذلك القمران.

قـال :

لنا قمراها والنجوم الطوالع

أراد الشمس والقمر، فغلب القمر لشرف التذكير، وأما قولهم سنة العمرين يريدون أبا بكر وعمر، قال ابن سيدة فى "المحكم" إنما فعلوا ذلك إيثارًا للخفة، أى غلب الأخف على الأثقل، لأن لفظ "عمر" مفرد ولفظ أبى بكر مركب وذكر أبو عبيد فى "غريب الحديث" أن ذلك للشهرة وطول المدة وذكر غيرهما أن المراد به عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وعلى هذا فلا تغليب[٢] .

---

[١] البرهان، ج ٣، ص ٣١٣.

[٢] البرهان، ج ٣، ص ٣١٣.

ويذكر البهاء السبكى[1] فى عروس الأفراح، أن ابن الشجرى يقول: ومن زعم أنهم أرادوا بالعمرين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، فليس قوله بشىء لأنهم نطقوا بالعمرين من قبل أن يعرفوا عمر بن عبد العزيز.

ويستدرك صاحب البرهان على ما قيل، ويؤكد كلامه بأنهم نطقوا بالعمرين قبل أن يعرفوا عمر بن عبد العزيز، فقالوا يوم الجمل لعلى بن أبى طالب : سنة العمرين.

---

[1] شروح التلخيص، ج ٢، ص ٥٢.

إقامة صيغة مقام أخرى

هى ضمن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وتحته أنواع كثيرة :

منها : إطلاق المصدر على الفاعل، نحو : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾[1] ولهذا أفرده. وعلى المفعول، نحو : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾[2] أى من معلومه، ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾[3] أى مصنوعه ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[4] أى مكذوب فيه، لأن الكذب من صفات الأقوال لا الأجسام.

ومنه إطلاق البشرى على المبشر به، والهوى على المهوى والقول على المقول[5].

ومنه إطلاق الفاعل على المصدر، نحو : ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[6] أى تكذيب، وإقامة المفعول مقام المصدر نحو : ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾[7] أى الفتنة. على أن الباء غير زائدة.

---

[1] الشعراء : ٧٧.

[2] البقرة : ٢٥٥.

[3] النمل : ٨٨.

[4] يوسف : ١٨.

[5] المعترك، ج ١، ص ١٩٢ للسيوطى.

[6] الواقعة : ٢.

[7] القلم : ٦.

ومنها : إطلاق فاعل على مفعول، نحو : ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾[1] أى مدفوق، وقوله تعالى : ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أى مرضى عنها، وعليه قول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى المطعوم المكسو.

وقوله تعالى : ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾[2] اى مامونًا فيه.

وعكسه نحو : ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾[3] أى آتيا. ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾[4] أى ساترًا وقيل : هو على بابه، أى مستورًا عن العيون لا يحس به أحد.

ومنها : اطلاق فعيل بمعنى مفعول، نحو : ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾[5].

---

[1] الطارق : ٦.

[2] هود : ٤٣.

[3] مريم : ٦١.

[4] الإسراء : ٤٥.

[5] الفرقان : ٥٥.

الفصل التاسع

تغليب التذكير على التأنيث

تغليب التذكير على التأنيث

ومن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر يقول ابن جنى[1] (ت ٣٩٢ هـ) اعلم أن هذا الشرج غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، وقد ورد به القرآن الكريم، وفصيح الكلام منثورًا ومنظومًا، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد فى الجماعة، والجماعة فى الواحد، وفى حمل الثانى على لفظ قد يكون عليه الأول، أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعًا وغير ذلك.

تذكير المؤنث

فمن تذكير المؤنث قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾[2] أى هذا الشخص أو هذا المرئى ونحوه.

وكذلك قوله تعالى : ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾[3] لأن الموعظة والوعظ واحد[4].

يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ)[5] فى مجازه العرب تصنع هذا، إذا بدءوا بفعل المؤنث قبله.

ويجوز أن يكون التذكير هنا (إنما هو) لأجل فعيل على قوله[6] :

---

[1] الخصائص، ج ٢، ص ٤١١، ٤١٢.

[2] الأنعام : ٧٨.

[3] البقرة : ٢٧٥.

[4] الخصائص، ج ٢، ص ٤١٢.

[5] مجاز القرآن، ج ١، ص ٨٣.

[6] أى جرير، كما فى اللسان (صدق) والديوان، ص ٣٩٨، وفى زهر الآداب، ج ١، ص ٩٣ نسبته لمزاحم العقيلى.

نصبن الهوى ثم ارتمين قلوبنا   بأعين أعـــداء وهـــن صديق

وقولـــه[١] :

ليـــالى لا عفراء منـــك بعيدة   فتسلى ولا عفراء منك قريب

وعليه قول الحطيئة :

ثلاثـــة أنفس وثـــلاث ذود[٢]   لقد جار الزمـــان على عيالى

ذهب بالنفس إلى الإنسان المذكر[٣].

ونتفق مع ما ذهب إليه ابن جنى ودليل ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٤] وتأويل الآية الكريمة على أن النفس للإنسان المذكر، والمقصود به آدم عليه السلام.

وقوله تعالى : ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[٥] غلب المذكر، لأن الواو جامعة، لأن لفظ الفعل مقتض، ولو أردت العطف امتنع. وقوله : ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[٦] .

---

[١] عروة بن حزام.

[٢] الذود من الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة. ويعنى بثلاثة الأنفس نفسه وزوجه وابنته مليكة، وبالذود ثلاثًا من النوق كان يقوم بها على عياله فقد إحداها، انظر الكتاب، ج ٢، ص ١٧٥، والخزانة، ج ٣، ص ٣٠١.

[٣] الخصائص، ج ٢، ص ٤١٢.

[٤] النساء : ١.

[٥] القيامة : ٩.

[٦] التحريم : ١٢.

وقوله : ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[١] والأصل (من القانتات والغابرات) فعدت الأنثى من المذكر بحكم التغليب.

ويعقب الزركشي[٢] على ذلك بقوله :

هكذا قالوا : وهو عجيب، فإن العرب تقول : نحن من بنى فلان، لا تريد إلا موالاتهم، والتصويب لطريقتهم، وفى الحديث الصحيح فى الأشعريين : "هم منى وأنا منهم" فقوله سبحانه : "من القانتين" ولم يقل : "من القانتات" إيذانًا بأن وضعها فى العباد جدًا واجتهادًا، وعلمًا وتبصرًا ورفعة من الله لدرجاتها فى أوصاف الرجال القانتين وطريقهم. ونظيره، ولكن بالعكس قول عقبة بن أبى معيط لأمية بن خلف لما أجمع القعود عن وقعة بدر، لأنه كان شيخاً فجاء بمجمرة، فقال : يا أبا على استجمر، فإنما أنت من النساء، فقال : قبحك الله وقبح ما جئت به، ثم تجهز.

ونازع بعضهم فى ذلك من وجه آخر، فقال : يحتمل أى يكون "من" للتبعيض بل لابتداء الغاية، أى كانت ناشئة من القوم القانتين، لأنها من أعقاب، هارون أخى موسى عليه السلام.

ويسوق ابن جنى[٣] فى خصائصه شواهد أخرى من تذكير المؤنث، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾[٤] .

إذا جعلت فى (مفتحة) ضميرًا، وجعلت (الأبواب) بدلاً من ذلك الضمير، ولم يكن تقديره : الأبواب منها على أن تخلى (مفتحة) من

---

[١] الأعراف : ٨٣.

[٢] البرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٠٢.

[٣] الخصائص، ج ٢، ص ٤١٣، ٤١٤

[٤] ص ٠ ٥٠.

الضمير. نعم إذا كان فى (مفتحة) ضمير (والأبواب) بدل منه فلابد أيضًا من أن يكون تقديره (مفتحة لهم) الأبواب منها. وليس (منها) وفى (مفتحة) ضمير مثلها إذا أخليتها من ضمير، وذلك أنها إذا خلت (مفتحة) من ضمير فالضمير فى (منها) عائد الحال إذا كانت مشتقة كقولك : مررت بزيد واقفًا الغلام معه، وإذا كان فى (مفتحة) ضمير فإن الضمير فى (منها) هو الضمير الذى يرد به المبدل عائدًا على المبدل منه، كقولك : ضربت زيدًا رأسه، أو الرأس منه، وكلمت قومك نصفهم أو النصف منهم وضرب زيد الظهر والبطن أى الظهر منه والبطن منه، فاعرف ذلك فرقًا بين الموضعين.

ومن تذكير المؤنث قوله :

إن امــرأ غــره منكـن واحدة　　　بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

وبعــده :

أنسيت عهدى ولم تعنى بموثقى　　　تبـا لفعلك والمفقـود مهجور

لما فصل بين الفعل وفاعله حذف علامة التأنيث، وإن كان تأنيثه حقه[1].

ويقول ابن جنى : وتذكير المؤنث واسع جدًا لأنه رد فرع إلى أصل، لكن تأنيث المذكر أذهب فى التناكر والإعراب وسنذكره. كقوله تعالى : ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2] أى بيان ودليل وبرهان، وقوله :

---

[1] الخصائص، ج ٢، ص ٤١٤.

[2] الأعراف ٨٥

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾[١] يقول الزركشي[٢] :

وإنما يترك التأنيث كما يترك في صفات المذكر، لا كما في قولهم: امرأة معطار، لأن السماء بمعنى المطر، مذكر.

قال معاوية بن مالك بن جعفر[٣] :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابًا

ويجمع على اسمية وسمى، قال العجاج :

تلفه الأرواح والسمى[٤]

وقوله : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾[٥] إلى ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾[٦] ذكر الضمير، لأنه ذهب بالقسمة إلى المقسوم[٧]. وقوله : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾[٨].

ذهب بالأنعام إلى معنى النعم، أو حمله على معنى الجمع[٩].

---

[١] الأنعام : ٦.

[٢] البرهان، ج ٣، ص ٣٥٩.

[٣] انظر المفضليات، ص ٣٥٩، والبيت من شواهد التلخيص، ونسبه بعض شراحه إلى جرير، وليس له.

[٤] اللسان، ج ١٩، ص ١٢٣ ونسبه إلى رؤبة.

[٥] النساء : ٨.

[٦] النساء : ٨.

[٧] البرهان، ج ٣، ص ٣٥٩.

[٨] النحل : ٦٦.

[٩] البرهان، ج ٣، ص ٣٦٠.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١] .

ولم يقل : "قريبة" قال الجوهرى : ذكرت على معنى الإحسان، وذكر الفراء أن العرب تفرق بين النسب، والقرب من المكان، فيقولون هذه قريبتى من النسب وقريبى من المكان، فعلوا ذلك فرقًا بين قرب النسب والمكان. قال الزجاج: وهذا غلط ، لأن كل ما قرب من مكان ونسب، فهو جار على ما يقتضيه من التذكير والتأنيث، يريد أنك إذا أردت القرب من المكان، قلت : زيد قريب من عمرو، وهند قريبة من العباس، فكذا فى النسب. وقال أبو عبيدة[٢] : ذكر قريبٍ لتذكير المكان، أى مكانًا قريبًا، ورده ابن الشجرى بأنه لو صح لنصب "قريب" على الظرف.

وقال الأخفش : المراد بالرحمة هنا المطر، لأنه قد تقدم ما يقتضيه، فحمل المذكر عليه.

وقال الزجاج : لأن الرحمة والغفران بمعنى واحد، وقيل : لأنها والرحم سواء.

ومنه : ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[٣] فحملوا الخبر على المعنى، ويؤيده قوله تعالى : ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾[٤] ، وقيل : الرحمة مصدر، والمصادر كما لا تجمع لا تؤنث. وقيل : قريب على وزن فعيل و"فعيل" يستوى المذكر والمؤنث حقيقًا كان أو غير حقيقى، ونظيره[٤] قوله تعالى : ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٥]

---

[١] الأعراف : ٥٦.

[٢] مجاز القرآن، ج ١، ص ٢١٦.

[٣] الكهف : ٨١.

[٤] الكهف : ٩٨.

[٤] البرهان، ج ٣، ص ٣٦٠.

[٥] يس : ٧٨.

وقيل : من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه مع الالتفات إلى المحذوف، فكأنه قال : «وإن مكان رحة الله قريب» ثم حذف المكان وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره.

وقيل : من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، أى أن رحمة الله شيء قريب أو لطيف، أو بر أو إحسان[1] وقيل : من باب إكساب المضاف حكم المضاف إليه، إذا كان صالحًا للحذف والاستغناء عنه بالثانى، والمشهور فى هذا تأنيث المذكر لاضافته إلى مؤنث كقول ذى الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفهت

أعاليهـا مـر الريـاح النواسم

فقال : "تسفهت" والفاعل مذكر، لأنه اكتسب تأنيثًا من الرياح، إذ الاستغناء عنه جائز، وإذا كانت الإضافة على هذا تعطى المضاف تأنيثًا لم يكن له، فلأن تعطيه تذكيرًا لم يكن لـه -كما فى الآية الكريمة- أحق وأولى، لأن التذكير أولى، والرجوع إليه أسهل من الخروج عنه وهذا الرأى صحيح لوجود هذا البيت فى باب تأنيث المذكر وقد ذكر فى بابه.

وقيل : من الاستغناء بأحد المذكورين لكون الآخر تبعًا لـه ومعنى من معانيه.

ومنه فى أحد الوجوه قوله تعالى : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[2] فاستغنى عن خبر الأعناق بخبر أصحابها والأصل هنا إلى رحمة الله

---

[1] البرهان، ج ٣، ص ٣٦١.

[2] الشعراء : ٤.

قريب، وهو قريب من المحسنين فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوغ ذلك ظهور المعنى[١].

ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[٢].

قال البغوى : لم يقل : "قريبة" لأن تأنيثها غير حقيقى، ومجازها الوقت[٣].

وقال الكسائى : إتيانها قريب.

وقيل فى قوله تعالى : ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾[٤] ولم يقل "صرصرة" كما قال : ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٤] لأن الصرصر وصف مخصوص بالريح لا يوصف به غيرها، فأشبه باب "حائض" ونحوه، بخلاف "عاتية" فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به.

وأما قوله تعالى : ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾[٥] ففى تذكير "منفطر" خمسة أقوال[٦] :

أحدها : للفراء، أن السماء تذكر وتؤنث، فجاء "منفطر" على التذكير.

---

[١] البرهان، ج ٣، ص ٣٦١.

[٢] الشورى : ١٧.

[٣] البرهان، ج٣، ص ٣٦٢.

[٤] الحاقة : ٦.

[٥] المزمل : ١٨.

[٦] البرهان، ج ٣، ص ٣٦٢.

والثانى : لأبى على أنه من باب الجنس الذى بينه وبين واحده التاء، مفردة سماءه، واسم الجنس يذكر ويؤنث، نحو : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[1].

والثالث : الكسائى، أنه ذكر حملاً على معنى السقف.

والرابع : لأبى على أيضًا على معنى النسب، أى ذات انفطار، كقولهم : امرأة ترضع، أى ذات رضاع.

والخامس : للزمخشرى، أنه صفة لخبر محذوف مذكر، أى شىء منفطر.

وسأل أبو عثمان المازنى بحضرة المتوكل قومًا من النحويين منهم ابن السكيت، وأبو بكر بن قادم عن قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[2] كيف جاء بغيرها، ونحن نقول : امرأة كريمة، إذا كانت هى الفاعل وليس بمنزلة القتيل التى هى بمعنى المفعول، فأجاب ابن قادم وخلط، فقال له المتوكل : أخطأت : قل يا بكر – للمازنى، قال : بغى، ليس لـ "فعيل" وإنما هو "فعول" والأصل فيه "بغوى" فلما التقت واو وياء، وسبقت إحداهما بالسكون أدغمت الواو فى الياء فقيل : "بغى" كما نقول : امرأة صبور، بغير هاء، لأنها بمعنى "صابرة" فهذا حكم "فعول" إذا عدل عن فاعله، فإن عدل عن مفعوله جاء بالهاء، كما قال عنترة بن شداد

منها اثنتان وأربعون حلوبة سودًا كخافية الغراب الأسحم

---

[1] القمر : ٢٠.

[2] مريم ٢٨

بمعنى "محلوبة" حكاه التوحيدى فى "البصائر" ويذكر الزركشى فى برهانه ما قاله البغوى فى قوله تعالى : ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[١] ولم يقل "رميمة" لأنه معدول عن فاعله، وكلما كان معدولاً عن جهته ووزنه كان مصروفاً عن فاعله، كقوله : "وما كانت أمك بغيا" أسقط الهاء، لأنها مصروفة عن "باغية"[٢] وقال الشريف المرتضى[٣] : فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٤] .

إن الضمير فى ذلك يعود للرحمة، وإنما لم يقل و"لتلك" لأن تأنيث الرحمة غير حقيقى، كقوله تعالى : ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾[٥] ولم يقل "هذه" على أن قوله : "إلا من رحم" كما يدل على الرحمة يدل على "أن يرحم" ويجوز رجوع الكناية إلى قوله إلا أن يرحم والتذكير فى موضعه.

قال : ويجوز أن يكون قوله : "ولذلك خلقهم" كناية عن اجتماعهم على الإيمان، وكونهم فيه أمة واحدة، ولا محالة أنه لهذا خلقهم.

ويطابق هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٦] وقال : فأما قوله : "ولا يزالون مختلفين" فمعناه الاختلاف فى

---

(١) يس : ٧٨.

(٢) البرهان، ج ٣، ص ٣٦٢.

(٣) أمالى المرتضى، ج ١، ص ٧٠ بتصرف.

(٤) هود : ١١٨ - ١١٩.

(٥) الكهف : ٩٨.

(٦) الذاريات : ٥٦.

الدين والذهاب عن الحق فيه بالهوى والشبهات، وذكر أبو مسلم بن بحر[١]، فيه معنى غريبًا، فقال : معناه أن خلف هؤلاء الكفار يخلف سلفهم فى الكفر، لأنه سواء قولك : خلف بعضهم بعضًا، وقولك : اختلفوا كما سواء قولك : قتل بعضهم بعضا، وقولهم : اقتتلوا، ومنه قولهم : لا أفعله ما اختلف العصران[٢] (والجديذان) أى جاء كل واحد منهم بعد الآخر.

واختلف فى قوله تعالى:﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾[٣].

فقال الكسائى، أى من بطون ما ذكرنا.

وقال الفراء، ذكر لأنه ذهب إلى المعنى، يعنى معنى النعم، وقيل : الأنعام تذكر وتؤنث.

وقال أبو عبيدة : أراد البعض، أى من بطون أيها كان ذا لبن[٤].

وأنكر أبو حاتم تذكير الأنعام، لكنه أراد معنى النعم[٥].

---

[١] أحد المفسرين على مذهب المعتزلة ت ٢٧٠ هـ.

[٢] البرهان، ج ٣، ص ٣٦٤.

[٣] النحل . ٦٦

[٤] مجاز القرآن، ج ١، ص ٣٦٢.

[٥] البرهان، ج ٣، ص ٣٦٤

الفصل العاشر

تغليب التأنيث على التذكير

تغليب التأنيث على التذكير

لون من ألوان التغليب فى الكلام المراد به أن يأتى التعبير للتـأنيث وسياق الظاهر التذكير تغليبًا للتأنيث على التذكير.

وقد عرفه العـرب فـى كلامهم، ومـن ذلك قولهم "المرويـان" فـى الصفا والمروة، قال ابن دريد :

ثمت طاف وانثنى مستلمًا ثمت جاء المروتين وسعى

قال ابن هشام اللخمى فـى شـرحه، المروتـان هنـا الصفـا والمـروة تغليبًا كالعمرين، والقمرين، فمن قال الظاهر أن يقال المروتين : الصفـوان لم يصب لأنه سمع كذلك من العرب، وأما قول على بن أبى طالب "أشواط بين المروتين إلى الصفا، فليس مما نحن فيه لأن المراد كما فـى "الـروض الأنف" بالمروتين المروة وحدها وثنيت باعتبار أجزائها.

ومنهـا أيضـًا مـا أضيـف من الأبنـاء والبنـات لغير الأناسـى مـن الحيوانات وغيره، فإنه يجمع مذكره ومؤنثه على بنـات، فيقـال : فـى "ابن لبون، وابن آوى، وابن عرس" بنات لبون وبنـات آوى وبنـات عرس، ولا يجمع على بنين إلا شذوذًا كبنى نعش فى بنات نعش، وبنى برج فى بنـات برج، وفرقوا فيه بين المؤنث والمذكر فيمـا يؤلفُ كـابن مخـاض وبنت مخاض، واقتصر على المذكر فى غيره كابن عرس لأنه أخف.

ومنها كذلـك : أمـاك : لـلأم والأب، وفـى القـاموس همـا أمـاك أى أبواك أى أمك وخالتك ومنها باب العطف نحو : تقـوم هنـد وزيـد كمـا فـى الكشاف.

ومنها : الثيبان للرجل والمرأة، بناء على أن الثيب لا يطلق على الرجل كما فى القاموس.

وفى "درة الغواص" وأنت إذا استقربت مواضعه علمت أن ما ذكروه أغلبى، ألا تراهم يقولون فى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾[1] النازل فى حق الإنسان أنه شامل للعبيد، فإنه بطريق التغليب لا بدلالة النص أو إشارته، وقال بعض فضلاء السلف هذا خلاف المعهود، لأن المعهود أن يدخل النساء تحت حكم الرجال بالتبعية[2].

---

[1] النساء : ٢٥.

[2] درة الغواص فى أوهام الخواص، ص ١١١ محمد بن قاسمى وانظر أسلوب التغليب د/ صفا، ص ١٤٤.

تأنيث المذكر

وأما تأنيث المذكر فكقراءة من قرأ : ﴿تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾[1]

وكقولهم: ما جاءت حاجتك، وكقولهم : ذهبت بعض أصابعه أنث ذلك لما كان بعض السيارة سيارة فى المعنى، وبعض الأصابع إصبعًا، ولما كانت (ما) هى الحاجة فى المعنى. أنشدوا :

أتهجر بيتاً بالحجاز تلفعت به الخوف والأعداء من كل جانب[2]

ذهب بالخوف إلى المخافة.

وقال لبيد :

فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هى عردت إقدامها

إن شئت قلت : أنث الإقدام لما كان فى معنى التقدمة.

وإن شئت قلت : ذهب إلى تأنيث العادة، كما ذهب إلى تأنيث الحاجة فى قوله : (ما جاءت حاجتك).

وقال[3] :

يا أيها الراكب المزجى مطيته سائل بنى أسد ما هذه الصوت[4]

ذهب إلى تأنيث الاستغاثة، وحكى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سمع رجل من أهل اليمن يقول : فلان لغوب، جاءته كتابى فاحتقرها !

---

[1] يوسف : ١٠.

[2] ورد البيت فى اللسان (عوف) وفيه : "أم أنت زائرة" فى مكان : "من كل جانب".

[3] هو رويشد بن كثير الطائى، وانظر الحماسة بشرح التبريزى، ج ١، ص ١٦٤.

[4] الخصائص، ج٢، ص ٤١٦.

فقلت له : أتقول : جاءته كتابى : فقال : نعم، أليست بصحيفة، قلت : فما اللغوب ؟ قال : الأحمق، وهذا فى النثر كما ترى، وقد علله.

وكقول الهذلى[١] :

لو كان فى قلبى كقدر قلامة حبًا لغيرك قد أتاها أرسلى

كسَّر رسولا وهو مذكر على أرسل، وهو من تكسير المؤنث كأتان وآتن، وعناق وأعنق، وعقاب وأعقب، لما كان الرسول هنا إنما يراد به المرأة، لأنها فى غالب الأمر مما يستخدم فى هذا الباب، وكذلك ما جاء عنهم من جناح وأجنح، قالوا : ذهب فى التأنيث إلى الريشة[٢].

وعليه قول عمر بن أبى ربيعة[٣] :

فكان مجنى دون من كنت أتقى ثلاث شخوص : كاعبان ومعصر

أنث الشخص، لأنه أراد به المرأة.

وقال الآخر [٤] :

فإن كلابًا هذه عشر أبطن وأنت برئ من قبائلها العشر

ذهب بالبطن إلى القبيلة، وأبان ذلك بقوله، من قبائلها.

وأما قول الأعشى :

وتشرق بالقول الذى قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

---

[١] نسبه ابن برى إلى الهذلى، انظر اللسان (رسل) وديوان الهذليين، ج ٢، ص ٩٩، والصناعتين، ص ٣٤٤.

[٢] الخصائص، ج ٢، ص ٤١٦.

[٣] وهو من قصيدة الطويلة التى أولها : أمن آل نعم أنت غاد فمبكر.

[٤] الخصائص، ج ٢، ص ٤١٧، وانظر الكتاب، ج ٢، ص ١٧٤، والمعانى للفراء، ج ١، ص ١٢٦.

فإن شئت قلت : أنث، لأنه أراد القناة، وإن شئت قلت : إن صدر القناة قناة، وعليه قول : ذى الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفهت   أعاليها مـر الرياح النواسـم

الشاعر يصف النساء، وقوله : "تسفهت أعاليها مر الرياح" أى حركتها واستخفتها، والنواسم التى تهب بضعف يصفهن وقول جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت   سور المدينة والجبال الخشع

فقد أنث الفعل وهو للمذكر.

وقول الآخر [١] :

طول الليالى أسرعت فى نقضى   أكلن بعضى وتركن بعضى

فقد أنث الفعل وهو للمذكر، أسرعت وهو لطول الليالى ويجوز أن يكون أنث الفعل لأجل إضافة طول إلى الليالى فاكتسبت التأنيث.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[٢]

أنث الفعل وهو للمذكر "تك مثقال" للفاعل ويجوز أيضًا أن يكون اكتسب التأنيث لأجل إضافة مثقال إلى حبة.

يقول الفراء فى معانى القرآن[٣] : فإن قلت : إن المثقال ذكر فكيف قال: (تكن) ؟ قلت : لأن المثقال أضيف إلى الحبة وفيها المعنى، كأنه قال : إنها إن تك حبة، وعليه قول الشاعر :

---

[١] أى العجاج ! وقيل الأغلب العجلى. الخصائص، ج ٢، ص ٤١٨، وانظر الكتاب، ج ١، ص ٢٦، وشواهد المغنى للسيوطى، ص ٢٩٨، وللبغدادى، ج ٢، ص ٨٠٢.

[٢] لقمان : ١٦.

[٣] معانى القرآن للفراء، ج ١، ص ٨٧

على قبضة موجوءة ظهر كفه   فلا المرء مستحى ولا هو طاعم

لأنه ذهب إلى الكف[١].

وقوله[٢]:

أبا عرو لا تبعد فكل ابن حرة   ستدعوه داعى موته فيجيب

فأنث فعل الداعى وهو ذكر، لأنه ذهب إلى المونة.

وقال الآخر[٣]:

قد صرح السير عن كتمان[٤] وابتذلت

وقـــع المحاجـــن بالمهرية الذقـــن

فأنث فعل الوقع "ابتذلت" وهو مذكر؛ لأنه ذهب إلى المحـاجن، أى اكتسب التأنيث لأجل الإضافة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٥]

أى بكتاب من الله، فقد أنث كلمة والمقصود فيها مذكر وهو كتاب.

---

[١] معانى القرآن للفراء، ج ١، ص ١٨٧.

[٢] ذكره فى الخزانة، ج ١، ص ٣٧٧.

[٣] هو تميم بن أبى بن مقبل، انظر معانى القرآن للفراء، ج ١، ص ١٨٧.

[٤] كتمان اسم موضع وقيل اسم جبل، والزمن جمع ذقون وهى من الإبل التى تميل ذقنها إلى الأرض، وقيل هى السريعة.

[٥] آل عمران: ٣٩.

يقول أبو عبيدة : تقول العرب الرجل أنشدنى كلمـة كذا وكذا، أى قصيدة فلان وإن طالت.

وقوله تعالى :﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[١] .

وقوله تعالى :﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٢] .

أى جماعة.

أما قولـه تعـالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣] أى كان إمامًا مطيعًا، ويقال أنت أمة فى هذا الأمـر أى يؤتـم بك، وقولـه : ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[٤] أى بعد قرن، ويقال : بعـد أمـة، أى نسيان، نسيت كذا وكذا. ويذكر ابن جنى[٥] : شواهد أخرى لهذا الأسلوب فيقول : وأما قول بعضهم : صرعتنـى بعيرى، فليس عن ضـرورة، لأن البعير يقع على الجمل والناقة. قال :

لا تشربا لبن البعير وعندنا عرق الزجاجة واكف المعصار[٦]

والمعنى : أن الشاعر يخاطب نفسه على سبيل التجريد وينهيها عن شرب لبن البعير، والخمر حاضرة عنده حال عصيرها.

---

[١] آل عمران : ١٠٤.

[٢] آل عمران : ١١٠.

[٣] النحل : ١٢٠.

[٤] يوسف : ٤٥.

[٥] الخصائص، ج٢، ص ٤١٨.

[٦] الخصائص، ج ٢، ص ٤١٨.

والشاهد كما نرى أنه خاطب البعير وهو مذكر فى الفعل (لا تشربا) وإنما فعل ذلك لأن البعير يطلق على الجمل والناقة كقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] . فأنث "الفردوس" وهو مذكر حملاً على معنى الجنة. وقوله : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[2] فأنث "عشر" حيث جردت من الهاء مع إضافته إلى الأمثال، وواحدها مذكر، وفيه أوجه :

أحدها : أنث لإضافة الأمثال إلى مؤنث، وهو ضمير الحسنات والمضاف يكتسب أحكام المضاف إليه، فتكون كقوله : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾[3] .

والثانى : هو من باب مراعاة المعنى، لأن الأمثال فى المعنى مؤنثة، لأن مثل الحسنة حسنة لا محالة، فلما أريد توكيد الإحسان إلى المطيع، وأنه لا يضيع شيء من علمه كأن الحسنة المنتظرة واقعة، جعل التأنيث فى أمثالها منبهة على ذلك الوضع، وإشارة إليه، كما جعلت الهاء فى قولهم : راوية وعلامة، تنبيهًا على المعنى المؤنث المراد فى أنفسهم، وهو الغاية والنهاية، ولذلك أنث المثل هنا توكيدًا لتصوير الحسنة فى نفس المطيع، ليكو نذلك أدعى له إلى الطاعة، حتى كأنه قال : "فله عشر حسنات أمثالها"حذف وأقيمت

---

(1) المؤمنين : ١١.

(2) الأنعام : ١٦٠.

(3) يوسف : ١٠.

صفته مقامه، وروعى ذلك المحذوف الذى هو المضاف إليه، كما يراعى المضاف فى نحو قوله : ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾[١] أى "أو كذى ظلمات" وراعاه فى قوله : "يغشاه موج" وهذا الوجه هو الذى عول[٢] عليه الزمخشرى، ولم يذكر سواه وقوله تعالى حكاية عن لقمان : ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾[٣] . فأنث الفعل المسند لـ "مثقال" وهو مذكر، لكن لما أضيف إلى "حبة" اكتسب منه التأنيث فساغ تأنيث فعله.

وذكر أبو البقاء فى قوله : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٤] أن التأنيث فى "ذائقة" باعتبار معنى "كل" لأن معناها التأنيث، قال : لأن كل نفس نفوس، ولو ذكر على لفظ "كل" جاز - يعنى أنه لو قيل : "كل نفس ذائق" جاز.

وهو مردود : لأنه يجب اعتبار ما يضاف إليه "كل" إذا كانت نكرة، ولا يجوز أن يعتبر كل.

وقوله تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾[٥] . فإن الظاهر عود الضمير إلى الإبداء، بدليل قوله : ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ

---

(١) النور : ٤٠.

(٢) البرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٦٥.

(٣) لقمان : ١٦.

(٤) آل عمران : ١٨٥.

(٥) البقرة : ٢٧١.

لَكُمْ﴾ فذكر الضمير العائد على الإخفاء، ولو قصد الصدقات لقال : "فهي" وإنما أنث هي والذى عاد إليه مذكر، على حذف مضاف، أى وإبداؤها نعم ما هى، كقوله : "القرية اسألها.

ومنه "سعيرا" وهو مذكر، ثم قال "إذا رأتهم" فجعله على النار.

وأما قوله : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[1] فقيل : الضمير عائد على الآيات المتقدمة فى اللفظ وقال البغوى : إنما قال "خلقهن" بالتأنيث، لأنه أجرى على طريق جمع التكبير، ولم يجر على طريق التغليب للمذكر على المؤنث، لأنه فيما لا يعقل.

وقيل فى قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[2]. إن المراد آدم فأنثه ردًا إلى النفس[3].

وحكى الثعلبى فى تفسيره فى سورة "اقترب" بإسناد إلى المبرد : سئل عن ألف مسألة، منها : ما الفرق بين قوله تعالى : ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[4] وقوله : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾[5] وقوله تعالى : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[6] و﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[7] فقال : كل ما ورد عليك من

---

[1] فصلت : ٣٧.

[2] النساء : ١.

[3] البرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٦٧.

[4] يونس : ٢٢.

[5] الأنبياء : ٨١.

[6] الحاقة : ٧.

[7] القمر : ٢٠.

هذا الباب، فلك أن ترده إلى اللفظ تذكيرًا، ولك أن ترده إلى المعنى تأنيثًا، وهذا من قاعة أن اسم الجنس تأنيثه غير حقيقي، فتارة يلحظ معنى الجنس فيذكر، وتارة معنى الجماعة فيؤنث قال تعالى في قصة شعيب : ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[١] وفي قصة صالح : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[٢] وقال : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[٣]. وأبدى السهيلي للحذف والإثبات معنى حسنًا فقال : إنما حذفت منه، لأن "الصيحة" فيها بمعنى العذاب والخزي إذا كانت منتظمة بقوله : ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾[٤] فقوى التذكير بخلاف قصة شعيب، فإنه لم يذكر فيها ذلك.

جاء ابن مسعود : ذكروا القرآن، ففهم منه ثعلب أن ما احتمل تأنيثه وتذكيره، كان تذكيره أجود.

ورُد بأنه يمتنع إرادة تذكير غير الحقيقي التأنيث، لكثرة ما في القرآن منه بالتأنيث ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ﴾[٥] ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾[٧] ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾[٨] وإذا امتنع إرادة غير الحقيقة، فالحقيقي أولى[٩].

---

[١] هود : ٩٤.

[٢] هود : ٦٧.

[٣] البقرة : ٧٠.

[٤] هود : ٦٦.

[٥] الحج : ٧٢.

[٦] القيامة : ٢٩.

[٨] إبراهيم : ١١.

[٩] البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧٠.

قالوا : ولا يستقيم إرادة أن ما احتمل التذكير والتأنيث غلب فيه التذكير، لقوله تعالى : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾[١] ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٢] فأنث مع جواز التذكير، قال : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[٣] ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾[٤] ، قال : فليس المراد كما فهم، بل المراد الموعظة والدعاء، كما قال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾[٥] إلا أنه حذف الجار والمقصود ذكروا الناس بالقرآن، أى ابعثوهم على حفظه كيلا ينسوه.

وقال الواحدى : إن قول ابن مسعود على ما ذهب إليه ثعلب، والمراد أنه إذا احتمل اللفظ التذكير والتأنيث ولم يحتج فى التذكير إلى مخالفة المصحف ذكر، نحو ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[٦] .

قال : ويدل على إرادته هذا أن أصحاب عبد الله من قراء الكوفة كحمزة والكسائى، ذهبوا إلى هذا فقرءوا ما كان من هذا القبيل بالتذكير، نحو : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾[٧] وهذا فى غير الحقيقى.

ويذكر الزركشى فى برهانه ضوابط التأنيث ويضعها فى ضربين: حقيقى وغيره : فالحقيقى لا يحذف التأنيث من فعله غالبًا إلا أن يقع فصل،

---

[١] ق : ١٠.

[٢] الحاقة : ٧.

[٣] القمر : ٢٠.

[٤] يس ٨٠.

[٥] ق ٤٥.

[٦] البقرة ٤٨

[٧] النور ٢٤

نحو : قام اليوم هند، وكلما كثر الفصل حسن الحذف، والإثبات مع الحقيقى أولى ما لم يكن جمعًا.

وأما غير الحقيقى فالحذف فيه مع الفصل حسن، قال تعالى :﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾[1] فإن كثر الفصل ازداد حسنًا، ومنه ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[2] ويحسن الإثبات أيضًا، نحو : ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[3] فجمع بينهما فى سورة هود.

وأشار بعضهم إلى ترجيح الحذف، واستدل عليه، بأن الله تعالى قدمه عليه حيث جمع بينهما فى سورة واحدة، وفيما قاله نظر[4].

---

[1] البقرة : ٢٧٥.

[2] هود . ٦٧.

[3] هود : ٩٤.

[4] البرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧١.

الفصل الحادى عشر

التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل وعكسه

التعبير عن الماضى بلفظ المستقبل

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، التعبير بلفظ المستقبل عن الفعل الذى حدث فى الزمن الماضى، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾[١] أى يقول : إن المضارع يراد به الديمومة والاستمرار، كقوله : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣]. أى فكان استحضارًا لصورة تكوينه، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[٤].

فعدل عن لفظ "أصبحت" إلى "تصبح" قصدًا للمبالغة فى تحقيق اخضرار الأرض لأهميته؛ إذ هو المقصود بالإنزال.

فإن قلت: كيف قال النحاه : إنه يجب نصب الفعل المقرون بالفاء إذا وقع فى جواب الاستفهام، كقوله : ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[٥] و"فتصبح" هنا مرفوع. قلت لوجوه :

---

[١] المائدة : ١١٦.

[٢] البقرة : ٤٤.

[٣] آل عمران : ٥٩.

[٤] الحج : ٦٣.

[٥] الأعراف : ٥٣.

أحدها : أن شرط الفاء المقتضية للنصب أن تكون سببية، وهنا ليست كذلك، بل هى للإستئناف، لأن الرؤية ليست سببًا للإصباح.

الثانى : أن شرط النصب أن ينسبك من الفاء وما قبلها شرط وجزاء، وهنا ليس كذلك، لأنه لو قيل : إن تر أن الله أنزل ماء تصبح، لم يصح، لأن إصباح الأرض حاصل، سواء رئى أم لا.

فإن قيل : شاع فى كلامهم إلغاء فعل الرؤية، كما فى قوله : "ولا تزال - تراها - ظالمة" أى ولا تزال ظالمة، وحينئذ فالمعنى منصب إلى الإنزال لا إلى الرؤية، ولا شك أنه يصح أن يقال : "إن أنزل تصبح" فقد العقد الشرط والجزاء[1].

قلت : إلغاء الرؤية فى كلامهم جائز لا واجب، فمن أين لنا ما يقتضى تعيين حمل الآية عليه.

الثالث : إن همزة الاستفهام إذا دخلت على موجب تقلبه إلى النفى، كقوله تعالى : ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾[2]، وإذا دخلت على نفى تقبله إلى الإيجاب، فالهمزة فى الآية للتقرير، فلما انتقل الكلام من النفى إلى الإيجاب لم ينتصب الفعل، لأن شرط النفى كون السابق منفيًا محضًا.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾[3].

---

[1] البرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧٥.

[2] المائدة : ١١٦.

[3] السجدة : ٢٧.

الرابع : أنه لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأن معناه إثبات الإخضرار، فكان ينقلب بالنصب إلى نفى الإخضرار، مثله أن تقول لصاحبك : ألم تر أنى أنعمت فتشكر، إن نصبت فأنت نافٍ لشكره، وإن رفعت فأنت مثبت لشكره، ذكر هذا الزمخشرى فى الكشاف، قال : وهذا ومثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم فى علم الإعراب وتوقير أهله[١].

وقال ابن الخباز : النصب يفسد المعنى، لأن رؤية المخاطب الماء الذى أنزله الله ليس سببًا للإخضرار، وإنما الماء نفسه هو سبب الإخضرار.

ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾[٢].

فقال : "تثير" مضارعًا، وما قبله وما بعده ماضيًا، مبالغة فى تحقيق إثارة الرياح السحاب للسامعين وتقدير تصوره فى أذهانهم.

فإن قيل : أهمّ الأفعال المذكورة فى الآية إحياء الموتى، وقد ذكر بلفظ الماضى، وما ذكرته يقتضى أولوية ذكره بلفظ المضارع، إذ هو أهم، وإثارة السحاب سبب أعيد على قريب قيل : لا نسلم بأهمية إحياء الأرض بعد موتها، فالمقدمات المذكورة أهمها وأدلها على القدرة أعجبها وأبعدها عن قدرة البشر، وإثارة السحاب أعجبها، فكان أولى بالتخصيص بالمضارع، وإنما قال : إن إثارة السحاب أعجب لأن سببها أخفى، من

---

[١] البرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧٥.

[٢] فاطر : ٩.

حيث إنا نعلم بالفعل أن نـزول المـاء سبب فـى اخضـرار الأرض، وإثـارة السحاب وسوقه سبب نزول المـاء، فلـو خلينـا وظـاهر العقـل لـم نقـل : إن الرياح سببها، لعدم إحساسنا بمادة السحاب وجهته[١] .

ومن لواحق ذلك العدول عن المستقبل إلى اسم المفعول، لتضمنـه معنى الماضى كقوله تعالى : ﴿يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾[٢] تقريرًا للجمـع فيـه، وأنه لابد أن يكون معادًا للناس، مضروبًا لجميعهم، وإن شئت فـوازن بينـه وبين قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾[٣] لتعرف صحة هـذا المعنـى. فإن قلت : الماضى أدل على المقصود من اسم المفعول، فلم عدل عنه إلـى ما دلالته أضعف، قلت : لتحصـل المناسبة بين "مجمـوع" و"مشـهور" فـى استواء شأنهما طلبًا للتعديل فى العبارة. ومنـه العدول عـن المسـتقبل إلـى اسـم الفـاعل، كقولـه تعـالى : ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[٤] فـإن اسـم الفـاعل ليـس حقيقة فى الاستقبال، بل فى الحال.

---

[١] البرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧٦.

[٢] هود : ١٠٣.

[٣] التغابن : ٩.

[٤] الذاريات : ٦.

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى

هو أحد أساليب خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وتناوله كثير من العلماء، وذكروا أنه يغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المستوعد بها فيعدل فيه إلى اللفظ الماضى تقريرًا وتحقيقًا لوقوعه.

كقوله تعالى :﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[3].

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ﴾[4] أى نحشرهم.

وقوله تعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾[5].

ثم تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع، فيؤتى بصيغة الماضى مرادًا به المضى، تنزيلاً للمتوقع منزلة ما وقع، فلا يكون تعبيرًا عن المستقبل بلفظ الماضى بل جعل المستقبل ماضيًا مبالغة.

---

[1] النمل : ٨٧.

[2] الزمر : ٦٨.

[3] إبراهيم : ٢١.

[4] الكهف : ٤٧.

[5] الأعراف : ٤٨.

ومنه : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[1] .

ومنه : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[2] ونحوه.

وقد يعبر عن المستقبل بالماضى مرادًا بـه المستقبل، فهو مجاز لفظى، كقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾[3] فإنه لا يمكن أن يراد به المضى؛ لمنافاة "ينفخ" الذى هو مستقبل فى الواقع، وفائدة التعبير عنه بالماضى الإشارة إلى استحضار التحقق، وإنه من شأنه لتحققه أن يعبر عنه بالماضى وإن لم يرد معناه، والفرق بينهما أن الأول مجاز، والثانى لا مجاز فيه إلا من جهة اللفظ فقط[4] .

---

[1] النحل : ١.

[2] الأعراف : ٤٤.

[3] النمل : ٨٧.

[4] البرهان فى علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٧٣.

الفصل الثانى عشر

١ ـ الالتفات

٢ ـ القلب

١- الالتفات

الالتفات هو أحد أشكال خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وأسلوب من أساليب العرب، وبه وردت بعض آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ وهو من أهم أغراض النص الأدبي، لذلك كانت له خصائص أسلوبية متنوعة تحدث لونًا من التأثير والإيقاظ في النفس، يلوحان بفوائد بلاغية ممتازة، يحرص عليها متعاطي الأدب ومتلقيه، ومن الذين أدركوا هذه الجماليات الأسلوبية في الالتفات وضربوا على أوتار النفس علماء البلاغة.

فالبلاغيون قد درسوا هذا الأسلوب منذ زمن إلا أن كل عالم تناوله بشكل يختلف عن الآخر، سواء في تعريفه أو في بيان قيمته البلاغية، فنجد ابن جني في الخصائص يوسم هذا الباب بشجاعة العربية، وتابعه في ذلك بعض العلماء، فقد استعار الشجاعة وهي قوة في نفس الحيوان يظهر آثارها على بدنه وجوارحه من إقدام وشدة بطش استعارها للغة العربية، لكثرة تصرفاتها المختلفة وهذا النوع عنده أعم هذا العلم فائدة[1].

والالتفات هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارًا للسامع، وتجديدًا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه، وقد اتفق جمهور العلماء على أن مقامات الالتفات هي : "التكلم والخطاب والغيبة" لذا يكون الانتقال من مقام إلى آخر بعد التعبير بالأول، بخلاف ما جاء عند السكاكي.

ولذلك نرى أن كلام الجمهور أخص من كلام السكاكي في هذا

---

[1] الخصائص، ج ١، ص ٣٠١، والمحتسب، ج ١، ص ١٤٥.

الخصوص حيث إن كل التفات عندهم التفات عنده من غير عكس.

وبذلك يكون مذهب السكاكى أعم من مذهب الجمهور لأن الالتفات عنده يتحقق بالتعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاث على خلاف ما يقتضيه الظاهر ويترقبه، سواء سبقه التعبير عن ذات المعنى بطريق آخر منها أو لم يسبقه.

وجدير بالذكر أن السكاكى سار على نهج الزمخشرى[1] فى هذا المذهب وخالفه في ذلك السعد التفتازانى[2] والجمهور.

والرأى الراجح عندى فى الالتفات هو ما ذهب إليه السكاكى متابعًا فيه الزمخشرى لاتساعه وشموله.

ويذكر الإمام السيوطى[3] فى معتركه أن كل موضع من مواضع الالتفات يختص بنكت ولطائف باختلاف محله.

وصور الالتفات ست[4] :

الأولى : من التكلم إلى الخطاب كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[5] فقد عبر أولاً عن الذات بطريق المتكلم فى قوله : ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ثم انتقل، فعبر عنها ثانيًا بطريق الخطاب، فى قوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

---

[1] الكشاف، ج ٤، ص ٤٤٢.

[2] شروح التلخيص، ج ١، ص ١٥٣، والمطول، ص ١٣٠.

[3] معترك الأقران، ج ١، ص ٣٧٨.

[4] المنهاج الواضح، ج٤، ص ٢٠٨، حامد عونى.

[5] يس : ٢٢.

فهذا التفاوت عل رأى الجمهور لوجود التعبيرين، ومخالفة الثانى منهما لظاهر السياق، ولما يترقبه السامع، إذا كان مقتضى الظاهر أن يقال: وإليه أرجع، سر الالتفات على رأى السكاكى أيضًا لمخالفته مقتضى الظاهر.

هذا إذا كان الضميران للمتكلم، فإن كانا للمخاطبين كان فى التعبير الأول التفات على رأى السكاكى فقط لأنه على خلاف مقتضى الظاهر إذا كان مقتضى الظاهر أن يقال : "وما لكم لا تعبدون الذى فطركم" فعدل عن هذا الطريق إلى طريق التكلم تعريضًا بالمخاطبين، وهو لا يشترط أن يسبقه تعبير آخر، أما التعبير الثانى ففيه التفات على المذهبين.

الثانية : من التكلم إلى الغيبة كما فى قوله تعالى : ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ﴾[1] عبر أولاً عن المعنى بطريق التكلم فى قوله : "يا عبادى" ثم انتقل فعبر ثانيًا عن المعنى بطريق الغيبة فى قوله : "لا تقنطوا من رحمة الله" وكان مقتضى الظاهر أن يقال : "لا تقنطوا من رحمتى" ففى التعبير الثانى على المذهبين– أما عند الجمهور فلوجود التعبيرين، ومخالفة ثانيهما لمقتضى ظاهر الكلام، ولما يترقبه المخاطب، وأما عند السكاكى فلمخالفته لمقتضى الظاهر، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[2] ومقتضى الظاهر أن يقال : "فصل لنا ففيه التفات عند الطرفين، على ما علمت.

---

[1] الزمر : ٥٣.

[2] الكوثر : ١، ٢.

وفائدة الالتفات فى هذه الآية الكريمة تقع فى لفظ "الرب حثًا على فعل المأمور به لأن من يربيك يستحق العبادة.

الثالثة : من الخطاب إلى التكلم كما فى قوله تعالى :﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[١] عبر أولاً عن الذات بطريق الخطاب في قوله : واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه" ثم التفت فعبر عنها ثانيًا بطريق التكلم فى قوله "إن ربى رحيم ودود" ففى التعبير الثانى التفات على المذهبين – كما علمت ومثله قول الشاعر[٢] :

طحابك قلب فى الحسان طروب

بعيد الشباب عصرحان مشيب

يكلفنى ليلى وقد شط وليها

وعادت عواد بيننا وخطوب

يخاطب الشاعر نفسه فيقول : أضربك قلب هائم بحب الحسان، شغوف بهن حين كاد حبل الشباب ينصرم ولايتى أن يطالبنى هذا القلب بوصل ليلى، ويغرينى بها فى وقت عز فيه وصالها، وحالت صروفه الزمان دونه ففى قوله : "يكلفنى" التفات على المذهبين، أما عند الجمهور فلوجود التعبيرين إذا انتقل من الخطاب فى "طحابك" إلى التكلم فى "يكلفنى" ولمخالفته الثانى منهما مقتضى ظاهر الكلام إذ مقتضى الظاهر أن يقول : "يكلفك" وأما عند السكاكى فلمخالفته لمقتضى الظاهر وفى قوله : "طحابك"

---

[١] هود : ٩٠.

[٢] هو علقمة بن عبده العجلى.

التفات على رأى السكاكى فقط لمخالفته الظاهر إذ كان مقتضاه أن يقول : طحابى لأن المقام للتكلم فعدل عنه إلى الخطاب.

وروى "تكلفنى" بالتاء على أنه مسند إلى "ليلى" والمفعول محذوف، ويكون المعنى حينئذ : تحملنى ليلى شدائد فراقها -فإن كان الفعل المذكور- والحالة هذه مسندًا إلى القلب على أنه خطاب له كان التفات آخر من الغيبة إلى الخطاب على المذهبين، أما على الجمهور فلوجود التعبيرين، ومخالفة ثانيهما لظاهر السياق إذ عبر أولاً عن القلب بالاسم الظاهر، وهو من قبيل الغيبة، ثم عبر ثانيًا بطريق الخطاب فى قوله : وتكلفنى" وكان مقتضى السياق أن يقول "يكلفنى" بالياء، والمفعول حينئذ محذوف أى تكلفنى يا قلب أن أجرع مر فراقها وأما على رأى السكاكى فلمخالفته لمقتضى الظاهر.

الرابعة : من الخطاب إلى الغيبة كما فى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1] ومثله قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾[2] ففيه التفات على المذهبين من الخطاب فى "كنتم" إلى الغيبة "بهم" أما عند الجمهور فلوجود التعبيرين ومخالفة ثانيهما لمقتضى سياق الكلام، وأما السكاكى فلمخالفته مقتضى الظاهر إذا كان مقتضى الظاهر أن يقول : "بكم".

---

[1] آل عمران : ٩.

[2] يونس : ٢٢.

الخامسة : من الغيبة إلى التكلم : كما فى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[١] ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[٢] ففى قوله : "وأنزلنا" التفات على المذهبين الغيبة فى قوله : "وهو الذى أرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته" إلى التكلم فى قوله : "أنزلنا"، أما عند الجمهور فلوجود التعبيرين، ومخالفة ثانيهما لمقتضى ظاهر السياق إذ معناه أن يقال: "وأنزل" وأما عند السكاكى فلمخالفته لهذا المقتضى، وفى التعبير الأول التفات على رأى السكاكى فقط لمخالفته لمقتضى ظاهر المقام، إذ مقتضاه أن يقول : "أنا الذى أرسلت... الخ، لأن المقام للتكلم، فعدل عنه إلى الغيبة – ومثله قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾[٣] ، ففى التعبير الأول التفات على رأى السكاكى فقط، وفى الثانى التفات على المذهبين، ومثله قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾[٤] إلى أن قال : لنريه من آياتنا" ولا يخفى عليك تخريج المذهبين عليها.

---

[١] الأعراف : ٥٧.

[٢] الفرقان : ٤٨.

[٣] فاطر : ٩.

[٤] الإسراء : ١.

السادسة : من الغيبة إلى الخطاب كما فى قوله تعالى : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[١] ففى "إياك نعبد" التفات على المذهبين لمخالفة ثانى التعبيرين لمقتضى ظاهر السياق عند الجمهور، ولمخالفته لمقتضى ظاهر المقام عند السكاكى إذ مقتضى الظاهر عند الطرفين أن يقال : إياه نعبد" فعدل عنه إلى الخطاب فقال : "إياك نعبد"

يقول ابن أبى الإصبع فى بديعه[٢] : وجاء فى الكتاب العزيز من الالتفات قسم غريب جدًا لم أظفر فى الشعر له بمثال هدانى الله إلى الوقوع عليه، وهو : أن يقدم المتكلم فى كلامه مذكورين مرتين، ثم يخبر عن الأول منهما، وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثانى، ثم يعود فينصرف عن الإخبار عن الثانى إلى الإخبار عن الأول كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾[٣] انصرف عن الإخبار عن الرب عز وجل إلى الإخبار عن الإنسان : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٤] ويختم حديثه بقوله : وهذا يحسن أن يسمى التفات الضمائر، والله أعلم.

وفى الحقيقة أننى لم أعثر على مثل هذا الرأى قبل ابن أبى الإصبع.

---

[١] الفاتحة : ٤، ٥.

[٢] البديع لابن أبى الإصبع، ص ٤٥.

[٣] العاديات : ٦، ٧.

[٤] العاديات : ٨.

ويذهب صاحب المنهاج الواضح[1] فى أن الالتفات من مباحث علم البديع، لأنه إنما يبحث فيما يورث الكلام تطرية وبداعة، لا من أبحاث علم المعانى وموضوعه تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ويجاب بأن المقام قد يقتضى مزيد اصغاء السامع، واسترعاء اهتمامه لخطر شأنه كأن يكون المقام مدحًا فى عظيم، أو إدلاء بحجة أو نحو ذلك ومن هذه الناحية يكون من مباحث علم المعانى، وأما من جهة أنه يكسب الكلام طرافة وظرفًا فمن مباحث علم البديع فتسمية ذلك النقل من طريق إلى طريق "بالالتفات" عند علماء المعانى لا تنافى تسميته بهذا الاسم عند علماء البديع.

هذا وقد قمنا ببحث الالتفات فى أساليب القرآن الكريم فى العدد الثالث عشر من مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية – لذا لزم التنويه.

---

[1] المنهاج الواضح، ج ٤، ص ٢١٣، أ / حامد عونى.

٢- القلب

القلب هو أن يجعل جزء من الكلام مكان آخر يجعل مكانه على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر، وهو قسمان : لفظي ومعنوى، وسأتي بيانهما في الأمثلة[١].

وهو ضمن خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وقد ثار خلاف بين العلماء فمنهم من أنكره وعلى رأسهم حازم القرطاجني في كتاب "منهاج البلغاء" وقال إنه مما يجب أن ينزه كتاب الله عنه، لأن العرب إن صدر ذلك منهم فيقصد العبث أو التهكم أو المحاكاة أو حال اضطرار، والله منزه عن ذلك[٢].

وقبله جماعة مطلقًا منهم السكاكي بشرط عدم اللبس كما قال المبرد في كتاب "ما اتفق لفظه واختلف معناه"[٣] وعبارته : ويقولون : أدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت الخف في رجلي، وإنما يكون هذا فيما لا يكون فيه لبس ولا إشكال، وفصّل آخرون بين أن يتضمن اعتبارًا لطيفًا، فبليغ وإلا فلا، ولهذا قال ابن الصائغ، يجوز القلب على التأويل، ثم قد يقرب التأويل فيصح في فصيح الكلام، وقد يبعد فيختص بالشعر[٤] وقيل : إنه لا يكاد أحد يمنعه مطلقًا لوروده في القرآن وفصيح الكلام، ولعلهم يرون القلب اللفظي دون المعنوي[٥].

---

(١) بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٦٣، الشيخ عبد المتعال الصعيدي.

(٢) البرهان، ج ٣، ص ٢٨٨.

(٣) الكامل للمبرد، ص ٣٨.

(٤) البرهان، ج ٣، ص ٢٨٨.

(٥) بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٦٣.

ولأن قلب الكلام ما يحوج إلى التنبه للأصل، وذلك مما يورث الكلام ملاحة ولطفًا.

وقد قسمه الخطيب القزوينى إلى قسمين : مقبول ومردود :

الأول : المقبول، كقول رؤبة بن العجاج :

ومهمة مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه وسماؤه

فيه قلب يتضمن اعتبارًا لطيفًا، إذ جعل لون الأرض لغبرته وسمرته كلون السماء، مبالغة فى تصوير السماء لشدة الغبار والقتمة، وكان الوجه أن يقول : كأن لون سمائه لون أرضه، ولكنه قلب المعنى لاعتبار هذا النكتة البلاغية[١]. ونحوه، قول أبى تمام يصف قلم الممدوح :

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

وأرى الجنى العسل من إضافة الموصوف إلى الصفة، وقوله اشتارته – بمعنى جنته، والأيدى العواسل العارفة بجنيه والأولى صفة العلم مع الأعداء، والثانية صفته مع الأصدقاء والشاهد فى شطره الأول، وهو من القلب المعنوى أيضًا لأنه من التشبيه المقلوب، والاعتبار اللطيف فيه قصد المبالغة.

والثانى : المردود كقول القطامى :

فلما أن جرى سمن عليها كما طينت بالفدن السياعا

أمرت بها الرجال ليأخذوها ونحن نظن أن لن تستطاعا

يصف بذلك ناقته، والفدن القصر، والسياع الطين المخلوط بالتبن،

---

[١] بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٦٤، وانظر فن البلاغة، ص ٣١٠ د/ عبد القادر حسين.

أو الآلة التي يطين بها، يعني أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع، وفي ذلك قلب معنوي، فإن حمل السياع على الآلة لم يتضمن اعتبارًا لطيفًا، وفيه الشاهد وإن حمل على الطين فيجوز أن يكون المقصود المبالغة في سمنها لأنه يقصد تشبيهها بالسياع الذي صار لكثرته كأنه الأصل والفدن هو الفرع، فيكون هو أيضًا مثله مع أصله من العظم ونحوه، ولكنه لا يخلو من تكلف -وروى- كما بطنت بالفدن السياعا- وهو على القلب أيضًا، والمعنى كما طينت الفدن بالسياع[1].

أما صاحب البرهان[2] : فيفرد له بابًا ويقسمه إلى أنواع :

الأول : قلب الإسناد : وهو أن يشمل الإسناد إلى شيء والمراد غيره، كقوله تعالى : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾[3] إن لم تجعل الباء للتعدية، لأن ظاهره أن المفاتح تنوء بالعصبة، ومعناه أن العصبة تنوء بالمفاتح لثقلها، فأسند "لتنوء" إلى "المفاتح"، والمراد إسناده إلى العصبة، لأن الباء للحال والعصبة مستصحبة المفاتح، لا تستصحبها المفاتح، وفائدته المبالغة، بجعل المفاتح كأنها مستتبعة للعصبة القوية لثقلها.

وقيل : لا قلب فيه، والمراد، والله أعلم - أن المفاتح تنوء بالعصبة، أي تميلها من ثقلها وقد ذكر هذا الفراء وغيره. وقال ابن عصفور : والصحيح ما ذهب إليه الفارسي أنها بالنقل ولا قلب، والفعل غير متعد، فصار متعد بالباء لأن "ناء" غير متعد، يقال ناء النجم، أي

---

[1] بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٦٥.

[2] البرهان، ج ٣، ص ٢٨٨.

[3] القصص : ٧٦.

نهض وقال : ناء، أى مال للسقوط، فإذا نقلت الفعل بالباء قلت : نؤت به، أى أنهضته وأملته للسقوط، فقوله : "لتنوء بالعصبة" أى تميلها المفاتح للسقوط لثقلها. قال : وإنما كان مذهب الفارسى أصح، لأن نقل الفعل غير المتعدى بالباء مقيس، والقلب غير مقيس[١]، فحمل الآية على ما هو مقيس أولى.

ومنه قوله تعالى : ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[٢] أى خلق العجل من الإنسان، قاله ثعلب وابن السكيت.

قال الزجاجى : ويدل على ذلك ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾[٣] قال ابن جنى: والأحسن أن يكون تقديره : خلق الإنسان من العجلة، لكثرة فعله إياه، واعتماده له، وهو أقوى فى المعنى من القلب، لأنه أمر قد اطرد واتسع، فحمله على القلب يبعد فى الصنعة، ويضعف المعنى.

ولما خفى هذا على بعضهم قال : إن العجل هاهنا الطين، قال : ولعمرى إنه فى اللغة كما ذكر، غير أنه ليس المراد هنا إلا نفس العجل، ألا ترى إلى قوله عقبه : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[٤]، ونظيره قوله : ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾[٥]، ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[٦] لأن العجلة ضرب من الضعف، لما تؤذن به الضرورة والحاجة.

---

[١] البرهان، ج ٣، ص ٢٨٩.

[٢] الأنبياء : ٣٧.

[٣] الإسراء : ١١.

[٤] الأنبياء : ٣٧.

[٥] الإسراء : ١١.

[٦] النساء : ٢٨.

وقيل : فى قولـه : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾(١) أى إنـه مـن المقلوب، وأنه "وجاءت سكرة الحق بالموت"، وهكذا فى قراءة أبى بكر(٢) ، ومثله : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(٣) قـال الفـراء : أى لكـل أمـر كتبـه اللـه أجـل مؤجل.

وقيل فى قوله : ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾(٤) هو من المقلوب أى يريد بك الخير، ويقال : أراده بالخير وأراد به الخير.

الثـانى : قلب المعطـوف : إمـا بـأن تجعـل المعطـوف عليـه معطوفـا والمعطوف معطوفًا عليه، كقوله تعـالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾(٥) أى تدلى فدنا، لأنه بـالتدلى نـال الدنـو والقرب إلـى المنزلـة الرفيعـة وإلى المكانة لا إلى المكان.

وقيل لا قلـب، والمعنـى : ثـم أراد الدنـو فتدلـى، وفـى صحيـح البخارى(٦) : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾(٧) المعنى فإذا اسـتعذت فاقرأ.

---

(١) ق : ١٩.

(٢) البرهان، ج ٣، ص ٢٩٠.

(٣) الرعد : ٣٨.

(٤) يونس : ١٠٧.

(٥) النجم : ٨.

(٦) صحيح البخارى.

(٧) النحل : ٩٨.

وقولـه تعـالى :﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾[1] وقـال : صاحب الإيضاح : لا قلب فيه، لعدم تضمنه اعتبارًا لطيفًا.

ورد بتضمنه المبالغة فى شدة سـورة البأس، يعنـى هلكت بمجـرد توجه الناس إليها، ثم جاءها.

الثالث : العكس : وهو أمر لفظى، كقوله تعالى : ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[2] .

وقوله : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[3] .

وقوله : ﴿الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[4] .

وقوله : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[5] .

الرابع : المستوى : وهو أن الكلمة أو الكلمات تقرأ من أولها إلـى آخرهـا، ومن آخرها إلى أولها، لا يختلف لفظها ولا معناها، كقوله تعالى : ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[6] ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾[7] .

---

[1] الأعراف : ٤.

[2] الأنعام : ٥٢.

[3] البقرة : ١٨٧.

[4] الممتحنة : ١٠.

[5] الحج : ٦١.

[6] المدثر : ٣.

[7] الأنبياء : ٣٣.

الخامس : مقلوب البعض : وهو أن تكون الكلمة الثانية مركبة من حروف الكلمة الأولى، مع بقاء بعض حروف الكلمة الأولى، كقوله تعالى : ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[١] .

فـ "بنى" مركب من حروف "بين" وهو مفرق، إلا أن الباقى بعضها فى الكلمتين وهو أولها.

---

[١] طه : ٩٤.

الفصل الثالث عشر

١ ـ أسلوب الحكيم

٢ ـ تجاهل العارف

١- أسلوب الحكيم

هو أحد أساليب خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وقد عرفه البلاغيون بقولهم : هو تلقى كلام المخاطب بغير ما يترقب، وإجابة السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزله غيره تنبيهًا فى الصورتين على أن هذا هو الأولى بأن يراد ويطلب[1].

وقد سماه الإمام عبد القاهر[2] : المغالطة، وهو جدير بهذه التسمية وإن كانت مغالطة أدبية طريفة وسماه السيوطى[3] : فى السؤال والجواب.

ولأسلوب الحكيم ضربان من ضروب التعبير.

الأول : تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على غير ما يريد، تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد، وفيه شىء من المفاجئة والحكمة والتنبيه اللطيف.

كقول ابن حجاج للبغدادى :

فقلت ثقلت إذ أتيت مرارًا ... قال : ثقلت كاهلى بالأيادى

قلت : طولت قال : لا بل تطولـ ... ـت وأبرمت قال : حبل ودادى

فلفظ ثقلت وقع فى كلام المتكلم بمعنى حملتك المئونة، فحمله المخاطب على تثقيل عاتقه بالمنن والأيادى.

ومنه قول : القبعثرى[4] : للحجاج - لما قال له متوعدًا إياه، "لأحملنك على الأدهم، يريد القيد، فقال القبعثرى مثل الأمير يحمل على

---

[1] بغية الإيضاح للخطيب القزوينى، ج ١، ص ١٥٩ - ١٦٠.

[2] دلائل الإعجاز، ص ٩٢، عبد القاهر الجرجانى.

[3] معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٨٩ السيوطى.

[4] كان من رؤساء العرب وفصحائهم، وكان من الخوارج الذين خرجوا على سيدنا "على" كرم الله وجهه.

الأدهم والأشهب، يقصد الفرس، فقد أبرز وعيد الحجاج فى معرض الوعد حاملاً كلامه معنى لا يترقبه ولا ينتظره، فقال الحجاج، ويلك إنه الحديد، فقال : القبعثرى، لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا، فحمل كلامه أيضًا على غير ما يريد تخطئة له، وأن الأليق به الوعد لا الوعيد[1].

وعن سلوك هذه الطريقة فى جواب المخاطب عبر من قال مفتخرًا[2] :

أتت تشتكى عندى مزاولة القرى

وقد رأت الضيفان ينحون منزلى

فقلت كأنى ما سمعت كلامها

هُمُ الضيف جدى فى قراهم وعجلى

الثانى : فهو تلقى السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهًا على أنه الأهم.

كقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[3] فقد سألوا عن بيان ما ينفقون، فأجيبوا ببيان المصارف تنبيهًا على أن المهم هو السؤال عنها، لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها. وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ

---

[1] بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٦٠.

[2] بغية الإيضاح، ج ١، ص ١٦١.

[3] البقرة : ٢١٥.

﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[1] سألوا عن الهلال لم يبدو رقيقًا مثل الخيط ثم يتزايد قليلاً قليلاً حتى يمتلئ ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، فأجيبوا بيان حكمة ذلك تنبيهًا على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه، كذا قال السكاكى ومن أتى بعده، واسترسل التفتازانى فى الكلام إلى أن قال : ليسوا ممن يطلع على دقائق الهيئة بسهولة، وأقول : ليت شعرى من أين لهم أن السؤال وقع عن غير ما حصل الجواب به، وما المانع من أن يكون إنما وقع عن حكمة ذلك ليعلموها، فإن نظم الآية محتمل لذلك، كما أنه محتمل لما قالواه، والجواب ببيان الحكمة دليل على ترجيح الاحتمال الذى قلناه، وقرينة ترشد إلى ذلك، إذ الأصل فى الجواب المطابقة للسؤال، والخروج عن الأصل يحتاج إلى دليل، ولم يرد بإسناد لا صحيح ولا غيره أن السؤال وقع عما ذكره؛ بل ورد ما يؤيد ما قلناه فأخرج ابن جرير، عن أبى العالية، قال : بلغنا أنهم قالوا : يا رسول الله، لم خلقت الأهلة ؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ فهذا صريح فى أنهم سألوه عن حكمة ذلك لا عن كيفيته من جهة الهيئة، ولا يظن ذو دين بالصحابة الذى هم أدق فهمًا، وأغزر علمًا، أنهم ليسوا ممن يطلع على دقائق الهيئة بسهولة، وقد اطلع عليها آحاد العجم الذى أطبق الناس على أنهم أبلد أذهانًا من العرب بكثير، هذا لو كان للهيئة أصل معتبر، فكيف وأكثرها فاسد لا دليل عليه[2].

وقد صنفت كتابًا فى نقض أكثر مسائلها بالأدلة الثابتة عن رسول الله ﷺ: الذى صعد إلى السماء ورآها عيانًا، وعلم ما حوته من عجائب

---

[1] البقرة : ١٨٩.

[2] معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٨٩.

الملكوت بالمشاهدة وأتاه الوحى من خالقها، ولو كان السؤال قد وقع عما ذكروه لم يمتنع أن يجابوا عنه بلفظ يصل إلى أنه مهم، كما وقع ذلك لما سألوا عن المجرة وغيرها من الملكوتيات[1] .

نعم، المثال الصحيح لهذا القسم جواب موسى لفرعون حيث قال : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[2] لأنه سؤال عن الماهية أو الجنس، ولما كان هذا السؤال فى حق البارى تعالى خطأ لأنه لا جنس له فيذكر ولا تدرك ذاته، عدل إلى الجواب بالصواب ببيان الوصف المرشد إلى معرفته، ولهذا تعجب فرعون من عدم مطابقته للسؤال، فقال : ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾[3] أى جوابه الذى لم يطابق السؤال، فأجاب موسى : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾[4] المتضمن إبطال ما يعتقدونه من ربوبية فرعون نصًا، وإن كان دخل فى الأول ضمنًا إغلاظًا، زاد فرعون فى الاستهزاء به، فلما رآهم لم يتفطنوا أغلظ فى الثالث بقوله : ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5] ومثال الزيادة فى الجواب قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾[6] فى جواب ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[7] . وقول

---

[1] معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٩٠ للسيوطى.

[2] الشعراء : ٢٣، ٢٤.

[3] الشعراء : ٢٥.

[4] الشعراء : ٢٦.

[5] الشعراء : ٢٨.

[6] الأنعام : ٦٤.

[7] الأنعام : ٦٣.

موسى : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾[١] فى جواب ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[٢] زاد فى الجواب استلذاذاً بخطاب الله.

وقول قوم إبراهيم : ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[٣] فى جواب : ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾[٤] زادوا فى الجواب إظهار للابتهاج بعبادتها والاستمرار على مواظبتها ليزداد غيظ السائل.

ومثال النقض منه قوله تعالى:﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾[٥] فى جواب ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾[٦] أجاب عن التبديل دون الاختراع[٧].

قال الزمخشرى : لأن التبديل فى إمكان البشر دون الاختراع فطوى ذكره للتنبيه على أنه سؤال حمال، وقال غيره : التبديل أسهل من الاختراع، وقد نفى إمكانه فالاختراع أولى.

قد يعدل عن الجواب أصلاً إذا كان السائل قصده للتعنيت، نحو : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾[٨] قال : صاحب الإيضاح : إنما سأل اليهود تعجيزاً

---

[١] طه : ١٨.

[٢] طه : ١٧.

[٣] الشعراء : ٧١.

[٤] الشعراء : ٧٠

[٥] يونس ١٥

[٦] يونس . ١٥

[٧] معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٩١

[٨] الإسراء ٨٥

أو تغليظًا إذ الروح يقال بالاشتراك على روح الإنسان، والقرآن، وعيسى وجبريل، وملك آخر، وصنف من الملائكة، فقصد اليهود أن يسألوه، فبأى مسمى أجابهم، قالوا : ليس هو، فجاءهم الجواب مجملاً، وكأن هذا الإجمال كيدًا يرد به كيدهم.

يذكر السيوطى فى معتركه قاعدة ويقول : قيل أصل الجواب أن يعاد فيه نفس السؤال، ليكون وفقه، نحو : ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قال : ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾[1] فأنا فى جوابه هو "أنت" فى سؤالهم، وكذا قوله : ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾[2] فهذا أصله، ثم انهم أتوا عوض ذلك بحروف الجواب[3] .

وقد يحذف السؤال ثقة بفهم السامع بتقديره : نحو : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[4] فإنه لا يستقيم أن يكون السؤال والجواب واحد، فتعين أن يكون "قل الله" جواب سؤال، فكأنهم سألوا لما سمعوا ذلك " من يبدأ الخلق ثم يعيده".

ويذكر الأصل فى الجواب أن يكون مشاكلاً للسؤال، فإن كان جملة اسمية فينبغى أن يكون الجواب كذلك، ويجئ كذلك فى الجواب المقدر، إلا ابن مالك قال: قولك زيد – فى جواب من قرأ : إنه من باب

---

[1] يوسف : ٩٠.

[2] آل عمران : ٨١.

[3] معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٩٢.

[4] يونس : ٣٤.

حذف الفعل، على جعل الجواب جملة فعلية قال : وإنما قدرته كذلك لا مبتدأ مع احتماله، جريًا على عادتهم فى الأجوبة إذا قصدوا تمامها :

قال تعالى : ﴿يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا﴾[1] وقوله : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[2] وقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾[3] فلما أتى بالجملة الفعلية مع فوات مشاكلة السؤال عُلم أن تقدير الفعل أولى.

قال ابن الزملكانى فى البرهان : أطلق النحويون القول بأن "زيدًا" فى جواب من قام ؟ فاعل على تقدير قام زيد، والذى توجبه صناعة علم البيان أنه مبتدأ لوجهين[4] .

أحدهما : أنه يطابق الجملة المسوول بها فى الاسمية، كما وقع التطابق فى قوله : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾[5] فى الفعلية وإنما لم يقع التطابق فى قوله : ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[6] لأنهم لو طابقوا لكانوا مقرين الإنزال وهم من

---

[1] يس : ٧٨ - ٧٩.

[2] الزخرف : ٩.

[3] المائدة : ٤.

[4] معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٨٣.

[5] النحل : ٣٠.

[6] النحل : ٢٤.

الإذعان به على مفاوز. وأشكل على هذا : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[١] فى جواب : ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾[٢].

فإن السؤال وقع عن الفاعل لا عن الفعل، فإنهم لم يستفهموه عن الكسر، بل الكاسر، ومع ذلك صدر الجواب بالفعل.

وأجيب بأن الجواب مقدر دل عليه السياق، إذ "بل" لا يصلح أن يصدر بها الكلام، والتقدير : ما فعلته، بل فعله، قال الشيخ عبد القاهر : وحيث كان السؤال ملفوظًا به فالأكثر ترك الفعل فى الجواب والاقتصار على الاسم وحده، وحيث كان مضمرًا فالأكثر التصريح به لضعف الدلالة عليه.

ومن غير الأكثر : ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ﴾[٣] فى قراءة البناء للمفعول[٤].

ويذكر السيوطى فى معتركه ما جاء فيما أخرجه البزار عن ابن عباس، قال: ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب محمد ما سألوه إلا عن اثنتى عشرة مسألة كلها فى القرآن.

وأورد الإمام الرازى بلفظ أربعة عشر حرفًا، وقال : منها ثمانية فى البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾[٥] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾[٦] ﴿يَسْأَلُونَكَ

---

[١] الأنبياء : ٦٣.

[٢] الأنبياء : ٦٢.

[٣] النور : ٣٦ - ٣٧.

[٤] معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٩٤.

[٥] البقرة : ١٨٦.

[٦] البقرة : ١٨٩.

مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم﴾[١] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾[٢] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[٣] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾[٤] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[٥] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[٦] . قال والتاسع ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾[٧] والعاشر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ﴾[٨] والحادى عشر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[٩] والثانى عشر ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾[١٠] والثالث عشر ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾[١١] والرابع عشر ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[١٢] .

قلت : السائل عن الروح وذى القرنين مشركو مكة أو اليهود، كما فى أسباب النزول لا الصحابة، فالخالص اثنا عشر كما صحت به الرواية[١٣] .

---

[١] البقرة : ٢١٥.

[٢] البقرة : ٢١٧.

[٣] البقرة : ٢١٩.

[٤] البقرة : ٢٢٠.

[٥] البقرة : ٢١٩.

[٦] البقرة : ٢٢٢.

[٧] المائدة : ٤.

[٨] الأنفال : ١.

[٩] النازعات : ٤٢.

[١٠] طه : ١٠٥.

[١١] الإسراء : ٨٥.

[١٢] الكهف : ٨٣.

[١٣] معترك الأقران، ج ٣، ص ٤٩٤ للسيوطى.

ومن فوائد هذا الباب يقول الراغب الأصفهانى : السؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول.

والثانى : تارة بنفسه وتارة بعن وهو أكثر، نحو ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾[1]

وإذا كان لاستدعاء مال فإنه يُعدّى بنفسه أو بمن، وبنفسه أكثر نحو ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[2] ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾[3] ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[4] .

---

[1] الإسراء : ٨٥.

[2] الأحزاب : ٥٣.

[3] الممتحنة : ١٠.

[4] النساء : ٣٢.

٢- تجاهل العارف

وهو أسلوب من أساليب خروج الكلام عن مقتضى الظاهر. نرى أن ابن أبى الإصبع[١] يقول فى بديعه : وهذه تسمية ابن المعتز[٢]، وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم، أو ليدل على شدة الوله فى الحب، أو لقصد التعجب، أو التوبيخ، أو التقرير وهو على قسمين : موجب ومنفى، وكل قسم على ضربين ضرب يكون الاستفهام فيه عن شيئين، أحدهما واقع والآخر غير واقع، وللمتكلم أن ينطق بأحدهما ويسكت عن الآخر، لدلالة الحال عليه.

وعرفه السكاكى : «بسوق المعلوم مساق غيره»[٣] وعرفه الخطيب القزوينى : بمزج الشك باليقين، وهو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزداد تأكيدًا، والداعى إليه.

وعرفه الزركشى[٤] : «إخراج الكلام مخرج الشك فى اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد.

وقد اتفق العلماء على أنه يخرج إلى أغراض بلاغية مختلفة منها:

١- المدح : كقول ذى الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل[٥]

وبين النقى أأنت أمْ أم سالم

---

[١] بديع القرآن لابن أبى الإصبع، ص ٥٠.

[٢] البديع لابن المعتز، ص ١١١.

[٣] الإيضاح، ص ٨٥، خزانة ابن حجة، ص ١٢٢.

[٤] البرهان، ج ٣، ص ٤٠٩.

[٥] الوعساء وجلاجل والنقى - مواضع.

وقول أبى هلال العسكرى :

أثغر ما أرى أم أقحوان وقدٌّ ما أرى أم خيزران

٢- الذم : كقول زهير بن أبى سلمى :

وما أدرى وسوف إخال أدرى

أقــوم آل حصــن أم نســاء

٣- التعجب : كقوله تعالى : ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾[٢].

٤- التوبيخ : كقول ليلى بنت طريف الخارجية حين قتل أخوها الوليد بن طريف:

أيا شجر الخابور مالك مورقا[٣]

كأنك لم تجزع على ابن طريف

٥- الفخر : كقول الشاعر :

أينا تعرف المواقف منه وثبات على العدا وثباتا

٦- التقرير : قوله تعالى : ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[٤].

---

[١] الطور : ١٥.

[٢] القمر : ٢٤.

[٣] الخابور شجر دائم الخضرة.

[٤] الأنبياء : ٦٢.

٧- التدله : كقول الشاعر :

با لله يا ظبيات القاع قلن لنا

ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وكل هذه المواضع من القسم الموجب.

وأما ما جاء من القسم المنفى : فيذكر ابن أبى الإصبع له شواهد قرآنية منها : قوله تعالى : ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1].

فجاء هذا اللفظ فى هذه الآية متجاوزًا تشبيه العرب كل من راعهم حسنه من البشر بالجن، إلى تشبيه يوسف صلوات الله عليه حين كان حسنه رائعًا، وله مع الروعة نور وطلاقة، وعليه سكينة تؤمن ناظره من تلك الروعة تثبت قلبه لما يسرى إليه من سكينة، فكان كذلك تشبيهه بالملك الكريم، أصح وأوقع وأشد مطابقة من أكثر الجهات[2].

أما صاحب البرهان فقد ذكر له شواهد قرآنية كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[3] لكنه أخرج الكلام مخرج الشك تغاضيًا ومسامحة ولا شك عنده ولا ارتياب.

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[4] ونحوه :

---

(1) يوسف : ٣١.

(2) بديع القرآن، ص ٥١.

(3) سبأ : ٢٤.

(4) الزخرف : ٨١.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[١] أورد على طريق الاستفهام، والمعنى هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليها لما تبين لكم من المشاهد ولاح منكم فى المخايل : "أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم" تهالكًا على الدنيا[٢] .

وإنما أورد الكلام فى الآية على طريق سوق غير المعلوم سياق غيره، ليؤديهم التأمل فى التوقع عمن يتصف بذلك إلى ما يجب أن يكون مسببًا عنه من أولئك الذين أحمهم الله، وأعمى أبصارهم، فليزمهم به على ألطف وجه، إبقاء عليهم من أن يفاجئهم به وتأليفًا لقلوبهم، وبذلك التفت عن الخطاب إلى الغيبة، تفاديًا عن مواجهتهم بذلك.

ويقول الزركشي : وقد يخرج الواجب فى صورة الممكن كقوله تعالى : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[٣] ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾[٤] . ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾[٥] ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[٦] ، وقد يخرج الإطلاق فى صورة التقييد كقوله: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[٧] .

---

[١] محمد : ٢٢.

[٢] البرهان، ج ٣، ص ٤٠٩؛

[٣] الإسراء : ٧٩.

[٤] المائدة : ٥٢.

[٥] الإسراء : ٨.

[٦] البقرة : ٢١٦.

[٧] الأعراف : ٤٠.

ومنه قوله تعالى حاكيًا عن شعيب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾[١] فالمعنى لا يكون أبدًا من حيث علته بمشيئة الله، لما كان معلومًا أنه يشاؤه، إذ يستحيل ذلك على الأنبياء، وكل أمر قد علق بما لا يكون، فقد نفى كونه على أبعد الوجوه.

وقال قطرب[٢] : فى الكلام تقديم وتأخير، والاستثناء من الكفار لا من شعيب، والمعنى : لنخرجنك يا شعيب، والذين آمنوا معك من قريتنا، إلا أن يشاء الله أن تعودوا فى ملتهم، ثم قال تعالى حاكيًا عن شعيب : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾[٣] على كل حال. وقيل : الهاء عائدة إلى القرية، لا إلى الله[٤].

وإذا كان تجاهل العارف يقع ضمن علم البديع حسبما وضعه السكاكى وعلماء البلاغة المتأخرون إلا أنه يخرج الكلام فيه عن مقتضى الظاهر، فلذا رأينا أن نضعه فى هذا الباب.

---

[١] الأعراف : ٨٩.

[٢] عالم فى النحو.

[٣] الأعراف : ٨٩.

[٤] البرهان، ج ٣، ص ٤١٠.

الفصل الرابع عشر

١ - وقوع الخبر موقع الإنشاء

٢ - وقوع الإنشاء موقع الخبر

وقوع الخبر موقع الإنشاء

هذا الأسلوب ضمن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ولـه صـور متعددة وأغراض بلاغية مختلفة منها[١] :

١-التفاؤل فى الجمل الدعائية، نحو : "وفقك الله إلى ما فيه الخير، وقـول النابغة :

أتانى (أبيب اللعن) أنك لتنى

وتلك التى اهتم منها وأنصب

٢- التباعد عن صيغة الأمر تأدبًا واحتراسًا للسامع كما تقول لعظيم : ينظر فى شأنى ويقضى طلبتى، مكان انظر واقضى.

٣- التنبيه على تيسر المطلوب لوفرة الأسباب، واستكمال العدة، كما يقول القائد حاثًا جنده : تفتكون بالأعداء، وتنزلونهم من حصونهـم وتذيقونهم الردى، مكان افتكوا وأنزلوهم وأذيقوهم.

٤- إظهار الرغبة فى حصول المطلوب، كما تقول فى الكتاب لغائب جمـع الله الشمل وقرب أيام اللقاء.

٥- التنبيه على سرعة الامتثال ولو ادعاء، نحو : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾[٢] مكان لا تسفكوا مبالغة فى النهى بادعاء أنهم نهـوا فامتثلوا ثم أخبروا.

---

[١] علوم البلاغة، ص ١٤٦ للمراغى.

[٢] البقرة : ٨٤.

٦- حمل المخاطب على الفعل بألطف أسلوب، كقولك لرجل لا تحب أن يكذبك: تجئ غدًا، مكان قولك : جئ لتحمله على المجئ، لأنه إن لم يأت غدًا صرت كاذبًا من حيث الظاهر لكون كلامك فى صورة الخبر[١].

ومن مثال خروج الخبر إلى الإنشاء، نجد "أبا عبيدة معمر بن المثنى" يقول : فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢] هذا كلام هو إخبار، خرج مخرج الاستفهام، وليس هذا إلا فى ثلاثة مواضع هذا أحدها، والثانى : ما أبالى أقبلت أم أدبرت، والثالث : ما أدرى أو ليت أم جاء فلان.

وقوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾[٣] ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾[٤] و﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[٥] و﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾[٦] وقوله : ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾[٧] ولهذا جعلها العلماء من أمثلة الواجب.

وقوله تعالى : ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾[٨] على قراءة نافع أى لا ترفثوا ولا تفسقوا.

---

[١] علوم البلاغة، ص ١٤٧ للمراغى.
[٢] البقرة : ٦.
[٣] البقرة : ٢٣٣.
[٤] البقرة : ٢٢٨.
[٥] الرعد : ٢٤.
[٦] يوسف : ٩٢.
[٧] المائدة : ٨٩.
[٨] البقرة : ١٩٧.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾[١] قالوا : هو خبر وتأويله نهى، أى لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، كقوله تعالى : ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾[٣] على قراءة الرفع، وقيل : إنه نهى مجزوم - أعنى قوله "لا يمسه" ولكن ضمت اتباعًا للمضير كقوله ﷺ: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم»[٤] .

وقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾[٥] ضمن "لا تعبدون" معنى "لا تعبدوا" بدليل قوله بعده ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٦] وبه يزول الإشكال فى عطف الإنشاء على الخبر، لكن إن كان "حسنا" معمولاً لأحسنوا، فعطف "قولوا" عليه أولى لاتفاقهما لفظًا ومعنى، وإن كان التقدير "يحسنون" فهو الذى قبله، والعطف على القريب أولى، وقيل : "لا تعبدون" أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المنهى يسارع إلى الإنتهاء فهو مخبر عنه[٧] .

وكذا قوله : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٨] عطفًا على قوله "تؤمنون بالله ورسوله" ولهذا جزم الجواب.

---

[١] البقرة : ٢٧٢.

[٢] الواقعة : ٧٩.

[٣] البقرة : ٢٣٣.

[٤] البرهان، ج ٣، ص ٣٤٧.

[٥] البقرة : ٨٣.

[٦] البقرة : ٨٣.

[٧] البرهان، ج ٣، ص ٣٤٨.

[٨] الصف : ١٣.

وقوله : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾[١] إلى قوله : ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾[٢] فإن المقام يشتمل على تضمين "إن أصحاب الجنة اليوم" معنى الطلب، بدليل ما قبله ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[٣] فإن كلام وقت الحشر لوروده معطوفًا بالفاء، على قوله : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[٤] وعام لجميع الخلق لعموم قوله : "لا تظلم نفس شيئًا" وإن كان الخطاب الوارد بعده على سبيل الالتفات، وهو قوله : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥] خطاب عام لأهل المحشر، فيكون قوله : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ إلى قوله ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٦] مقيدًا بهذا الخطاب لكونه تفصيلاً لما أجمله : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٧].

وإن التقدير أن أصحاب الجنة منكم يا أهل المحشر، ثم جاء فى التفسير أن قوله هذا "إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون" يقال لهم

---

[١] يس : ٥٥.

[٢] يس : ٥٩.

[٣] يس : ٥٤.

[٤] يس : ٥٣.

[٥] يس : ٥٤.

[٦] يس : ٥٩.

[٧] يس : ٥٤.

حين يساق بهم إلى الجنة، بتنزيل ما هو لتكوين منزلة الكائن، أى إن أصحاب الجنة منكم يا أهل المحشر، يؤول حالهم إلى أسعد حال، والتقدير حينئذ "فامتازوا عنكم إلى الجنة، هكذا قرره السكاكى فى المفتاح.

قيل : وفيه نظر، لأنها إذا كانت طلبية ومعناها أمر المؤمنين بالذهاب إلى الجنة، فليكن الخطاب معهم لا مع أهل المحشر.

ولهذا قال بعضهم : إن تضمين أصحاب أهل الجنة للطلب ليس المراد منه أن الجملة نفسها طلبية، بل معناها أن يقدر جملة إنشائية بعدها[1]، بخلاف قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2].

ومنه قوله تعالى : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[3].

ويعقب ابن جنى على هذه الآية فيقول : لا يكون "يغفر" جوابًا لـ "هل أدلكم" وإن كان أبو العباس قد قاله، لأن المغفرة تحصل بالإيمان لا بالدلالة. انتهى.

وقد يقال : الدلالة بسبب السبب.

أما الزركشى فيقول : إذا علمت هذا، فإنما يجئ الأمر بلفظ الخبر الحاصل تحقيقًا لثبوته وأنه مما ينبغى أن يكون واقعًا ولابد، وهذه هى المشهورة.

---

[1] البرهان، ج٣، ص ٣٤٩.

[2] البقرة : ٨٣.

[3] الصف : ١١، ١٢.

وفيه طريقة أخرى نقلت عن القـاضى أبى بكـر وغـيره، وهـى أن هذا خبر حقيقة غير مصروف عن جهة الخبرية، ولكنه خبر عن حكم اللـه وشرعه ليس خبرًا عن الواقـع حتـى يلزم مـا ذكـره مـن الإشكال، وهـو احتمال عدم وقوع مخبره، فإن هذا إنما يلزم الخبر عن الواقـع، أمـا الخبر عن الحكم فلا، لأنه لا يقع خلافه أصلاً.

٢ – وقوع الإنشاء موقع الخبر

وهو ضمن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وله صورة منها :

١-إظهار العناية بالشيء والاهتمام به، نحو ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1] لم يقل : وإقامة وجوهكم، إشعار بالعناية والصلاة لعظيم خطرها وجليل قدرها فى الدين.

٢-التباعد عن مساواة اللاحق بالسابق، نحو : ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ﴾[2] لم يقل : وأشهدكم، تحاشيًا عن مساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى.

٣-الرضا بما حاصل كأنه مطلوب فى قوله عليه الصلاة والسلام من كذب علىّ متعمدًا فيتبوأ مقعده من النار» مكان يتبوأ.

وقد يخرج الإنشاء إلى الخبر كما جاء فى قوله تعالى : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[3].

جاء على لفظ الاستفهام والملائكة لم تستفهم ربها، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

---

[1] الأعراف : ٢٩.

[2] هود : ٥٤، ٥٥.

[3] البقرة : ٣٠.

يقول أبو عبيدة[١] : ولكن معناها معنى الإيجاب، أى أنك ستفعل، فأوجب ولم يستفهم.

تناول الزركشى الإنشاء الذى يوضع موضع الخبر وذكر له أمثلة من أساليب القرآن الكريم منها :

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾[٢] وقوله : ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[٣] وقوله : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[٤] وقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾[٥] فقوله "وألق" معطوف على قوله "أن بورك" و"ألق" وإن كان إنشاء لفظًا، لكن خبر معنى، والمعنى : فلما جاءها قيل : بورك من فى النار، وقيل : ألق.

والموجب لهذا قول النحاة إن "أن" هذه مفسرة لا تأتى إلا بعد فعل فى معنى القول، وإذا قيل : كتبت إليه أن أرجع، ونادانى أنْ قم، كله بمنزلة : قلت له وقال لى قم. كذا قال صاحب المفتاح، وما ذكره من أن "بورك" خبرية لفظًا ومعنى ممنوع لجواز أن يكون دعاء وهو إنشاء، وقد

---

[١] مجاز القرآن، ج ١، ص ٣٥.

[٢] مريم : ٧٥.

[٣] التوبة : ٥٣.

[٤] البقرة : ١٢٥.

[٥] النمل : ٨ – ١٠.

ذكر هذا التقدير الفارسى وأبو البقاء، فتكون الجملتان متفقتين فى معنى الإنشاء، فتكون مثل "لا تعبدون إلا الله"[١].

وقوله : ﴿يا ليتنا نرد ولا نكذب﴾[٢] إلى قوله : ﴿وإنهم لكاذبون﴾ فإنه يقال : كيف ورد التمني على التكذيب وهو إنشاء ؟

وأجاب الزمخشرى أنه ضمن معنى العدة، وأجاب غيره بأنه محمول على المعنى من الشرط أو الخبر، كأنه قيل : إن رددنا لم نكذب وآمنا، والشرط خبر، فصح ورود التكذيب عليه.

وقوله : ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾[٣] أى ونحن حاملون، بدليل قوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾[٤] والكذب إنما يرد على الخبر.

وقوله : ﴿أسمع بهم وأبصر﴾[٥] تقديره : ما أسمعهم وأبصرهم، لأن الله تعالى لم يتعجب منهم، ولكنه دل المكلفين على أن هؤلاء قد نزلوا منزلة من يتعجب منه، ومما يدل على كونه ليس أمرًا حقيقيًا ظهور الفاعل الذى هو الجار والمجرور فى الأول، وفعل الأمر لا يبرز فاعله أبدًا، ووجه التجوز فى هذا الأسلوب أن الأمر شأنه أن يكون ما فيه داعية للأمر، وليس الخبر كذلك، فإن عبر عن الخبر بلفظ الأمر أشعر ذلك بالداعية، فيكون ثبوته وصدقه أقرب، هذا بالنسبة لكلام العرب لا لكلام

---

[١] البرهان، ج ٣، ص ٣٥٠.

[٢] الأنعام : ٢٧ – ٢٨.

[٣] العنكبوت : ١٢.

[٤] الأنعام : ٢٨.

[٥] مريم : ٣٨.

الله، إذ يستحيل فى حقه سبحانه الداعية للفعل. يطرح الزركشى سؤالاً فيقول :

بقى الكلام فى أيهما أبلغ ؟ هذا القسم أو الذى قبله ؟

قال الكواشى فى قوله تعالى : ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾[١] الأمر بمعنى الخبر، لتضمنه اللزوم، نحو : إن رزتنا فلنكرمك، يريدون تأكيد إيجاب الإكرام عليهم.

وقال الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ﴾[٢] وورود الخبر، والمراد الأمر أو النهى، أبلغ من صريح الأمر والنهى، كأنه سورع فيه إلى الامتثال والخبر عنه[٣] .

وقال النووى فى شرح "مسلم" فى باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها : وقوله ﷺ : «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه، هكذا فى جميع النسخ، "ولا يسوم" بالواو "ولا يخطب" بالرفع، وكلاهما لفظة لفظ الخبر، والمراد به النهى، وهو أبلغ فى النهى، لأن خبر الشارع لا يتصور وقوع خلافه، والنهى قد يقع مخالفته، فكان المعنى عاملوا هذا النهى معاملة خبر الحتم، ثم قال ﷺ : «ولا تسأل المرأة طلاق أختها» يجوز فى "تسأل" الرفع والكسر، والأول على الخبر الذى يراد به النهى، وهو المناسب لقوله قبله : «لا يخطب» ولا يسوم، والثانى على النهى الحقيقى. انتهى[٤] .

---

[١] مريم : ٧٥.

[٢] البقرة : ٨٣.

[٣] البرهان، ج ٣، ص ٣٥٠.

[٤] البرهان، ج ٣، ص ٣٥٢.

الفصل الخامس عشر

١ ـ وضع المضمر موضع المظهر

٢ ـ وضع المظهر موضع المضمر

المظهر والمضمر

لحظ البلاغيون أن دراسة وضع المظهر موضع المضمر وعكسه، ودراسة الالتفات تتصل بباب المسند إليه لأنها من أحواله فألحقوها به، كما لحظوا أن أساليبها مما لا تجرى على مقتضى المقررات المتعارفة، وإنما هى ضروب من المخالفة، فترجموا لها بخروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر وألحقوا به أسلوب الحكيم لأنه ضرب من المخالفة، كذلك تجاهل العارف.

وقد تابعناهم فى ذلك لبنائه على ملاحظات دقيقة فى ربط مباحث العلم وتلاحقها فى نظام يجمعها.

أما مخالفة مقتضى الظاهر فى الإضمار والإظهار فقد قالوا : الأصل ألا يذكر الضمير إلا وقد سبقه ما يعود عليه ليكون المقصود بالكلام واضحًا، تقول : لقيت زيدًا وأكرمته، فتذكر الضمير أكرمته لأنه سبقه ما يعود عليه، ولا تقول : لقيته هكذا ابتداء لأن ذلك ضرب من التعمية والإلباس يناقض القصد من اللغة والبيان.

ومع وضوح هذا الأصل نجد صورًا من الأساليب بنيت علىخلافه، فيذكر الضمير ليفسر بمتأخر عنه فى بعض هذه الصور، أو يذكر من غير مفسر اعتمادًا على فهم السامع أو وضوح المعنى أو غير ذلك مما نشير إلى بعضه إن شاء الله[1].

١- وضع المضمر موضع المظاهر

ومن الصور التى يفسر فيها الضمير بمتأخر عنه ما يكون فيه

---

[1] خصائص التراكيب، ص ١٨٧، د / محمد أبو موسى.

ضمير الشأن والقصة والأساليب التى تصاغ على هذه الطريقة حين تصيب مواقعها، نجد لها مذاقًا حسنًا ووقعًا جليلاً، لأن الضمير حين يطرق النفس من غير أن يكون عائد يعود عليه، يصيرها إلى حالة من الغموض والإبهام لا قرار لها معها، فتستشرف إلى اكتشاف الحقيقة المتوارية وراء الغموض المثير، فإذا جاءت الجملة المفسرة تمكن معناها، ووقع فى القلب موقع القبول.

وتراهم لا يبنون الكلام على هذا الأسلوب إلا فى المعانى المهمة التى يهيئون النفوس لتلقيها، وإذا رأيتهم يمثلون له بمثل، قولنا هو زيد قائم أو هى هند قائمة، وإن كانوا يقولون إن المختار فى ضمير القصة ألا يرد إلا إذا كان فى العبارة مؤنثًا لا لأن هذا المؤنث هو مرجعه – لأن مرجعه هو الجملة كلها، ولكن لأن حس الكلمات كأنه ألف ضمير المؤنث مذكورًا فيما فيه تأنيث، إذا رأيتهم يمثلون لهم بمثل هذه الأمثلة.

فاعلم أنها أمثلة نحوية لا تراعى فيها المعانى بقدر ما يراعى فيها ببيان الصناعة وشرح القاعدة، وليس من الفصيح أن نقول : هو زيد قائم أو هى هند قائمة، لأن الخبر الواقع بعد ضمير الشأن، لابد وأن يكون خبرًا ذا بال، نعم يصح ذلك إذا كان زيد أو هند مما يكون خبر قيامه مهمًا لأن الشأن فيه لا يقوم لمانع يعلمه المخاطب، وأردت إخباره بزوال هذا وأن زيدًا صار يقوم[1].

وللإضمار فى مقام الإظهار موضعين :

---

[1] خصائص التراكيب، ص ١٨٨، د/ أبو موسى.

الأول : باب ضمير الشأن والقصة، ومن مواقعه الجليلة قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[١] فقوله هو ضمير الشأن ومفسره الجملة بعده، وواضح أن مضمونها معنى كبير هو محور الصراع فى تاريخ البشرية ولو قال سبحانه وتعالى : ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لما وجدت للكلام هذا الأثر، وهذه القوة التى تحسها النفس من هذه التهيئة المؤذنة بأن ما سيأتى بعدها كلام له خطر عظيم.

وفى قوله تعالى : بعد ما ذكر قصة المكذبين وإهلاكه القرى وهى ظالمة قال : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢] وسر هذا الأسلوب المبالغة وتعظيم تلك القصة وتفخيمها، من قبل أن الشىء إذا كان مبهمًا كانت النفوس متشوقة إلى فهمه، متطلعة إلى عمله، فإذا وضع وفسر حل محلاً رفيع القدر لديها، ومن ثمة لا يكون إلا فى المواضع التى يقصد فيها التهويل.

ومنه قول أبى خراش الهذلى فى أبياته التى ذكر فيها عروة أخاه وخراش ابنه، وكانا قد أسرا فقتل عروة ونجاخراش قال :

حمدت إلهى بعد عـروة إذ نجا ... خراش وبعض الشر أهون من بعض

فوا لله ما أنســى قتيلا رزيتــه ... بجانب قوسى مامشيت على الأرض

---

[١] الإخلاص : ١.

[٢] الحج : ٤٦.

على أنها تعفــو الكلوم وإ نما نوكل بالأدنـــى وإن جل ما يمضى

قال على أنها فذكر ضمير القصة وهيأ به النفس لتلقى هذا المعنـى الغريب الذى يشير إلى أن الآلام مهما كانت قاسية، فإنها لا تستعصى على الأيام التى تبتلعها وتطويها ويشير أيضًا إلى أن الإنسان مستهدف للأحـداث وأن تعاقبها يجعل المرء فى شغل بالثانية عـن الأولـى، وكـان هـذا المعنـى غريبًا لأنه استدرك به علـى قولـه قبلـه : فوالله مـا أنسـى قتيـلاً، وقـد ألـم الأحوص بهذا المعنى قوله :

إن القديـــم وإن جلــت رزيته ينضو فينسى ويبقى الحادث الأنف

قال المرزوقى : وأبلغ مما قاله قول الآخر :

فلم تنس أو فى المصيبات بعده ولكـــن نكء القـــرح بالقـرح أوجع

ومنه قول أبى تمام :

علـى أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتـــى ليس فيها عجائب[1]

الثانى : باب نعم وبئس، نحـو : نعـم رجـلاً محمـد، وبئـس غلامًـا سـعيد، وانتصاب ما بعدهما من النكرات يجئ على جهة التفسير، والداعى إليه المبالغة فىالمـدح أو الـذم، مـن حيـث إنـه عنـد الإيهـام يكـون للأفئدة تطلع إلى إيضاح المبهم وشغف إلى بيانه[2].

وقد يأتى الإضمار من غير ذكر مفسر وذلك اعتمادًا على وضـوح المراد وادعاء أنه معروف حـاضر فـى القلـب لا يخطـر بالبـال سـواه كمـا ترى فى مطالع القصائد التى تذكر الصاحبة بضمير عائد عليها، مثل قوله:

---

[1] خصائص التراكيب، ص ١٨٩، د/ أبو موسى.

[2] علوم البلاغة للمراغى، ص ١٤٣.

زارت عليها للظلام رواق وموقعه من الملاحة والعذوبة على ما ترى، وقد يكون الإضمار خاليًا من هذه الإشارة، وإنما اعتمد فيه على مجرد الوضوح فقط كما فى قول أبى بكر الهذلى بذكر تأبط شرا.

مما حملن به وهن عواقد   حبك النطاق فشب غير مهبل

أراد فى قوله حملن به، النساء، ولم يجر لهن ذكر لوضوح المراد، والمعنى كما يقول المرزوقى، هذا المغنى من الفتيان الذى حملت أمهاتهم بهم وهن غير مستعدات للفراش ولا واضعات ثياب الحفلة، فنشأ محمودًا مرضيًا لم يدع عليه بالهبل والثكل[١] .

---

(١) خصائص التراكيب، ص ١٩٠، د/ أبو موسى.

٢ ـ وضع المظهر موضع المضمر

لزيادة التقدير : والعجب أن البيانيين لم يذكروه فى أقسام الإطناب. ومنه بيت الكتاب[١] :

إذا الوحش ضم الوحش فى ظللاتها   سواقط من حر وقد كان أظهرا[٢]

ولو أتى على وجهه لقال : "إذا الوحش ضمها".

وإنما يسأل عن حكمته إذا وقع فى الجملة الواحدة، فإن كان فى جملتين مستقلتين كالبيت سهل الأمر، لكن الجملتين فيه كالجملة الواحدة، لأن الرافع للوحش الأول فعل محذوف كما يقول البصريون والفعل المذكور ساد مسد الفعل المحذوف، حتى كأنه هو، ولهذا لا يجتمعان، وإن قدر رفع الوحش بالابتداء فالكلام جملة واحدة ويسهل عند اختلاف اللفظين كقوله[٣] :

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت   حبال الهوينى بالفتى أن تقطعا

فاختلاف لفظين ظاهرين أشبها لفظى الظاهر والمضمر فى اختلاف اللفظ، وعليه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾[٤] ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾[٥] ولم يقل يؤذونه، مع ما فى ذلك من التعظيم،

---

[١] الكتاب : ١ : ٣١.

[٢] البيت للنابغة الجعدى.

[٣] هو الكلحبة اليربوعى.

[٤] التوبة : ٦١

[٥] التوبة ٦١

فالجمع بين الوصفين، كقوله فى الحديث "نبيك الذى أرسلت" وقوله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] فإنه قد كرر اسم الله ظاهرًا فى هذه الجمل الثلاث ولم يضمر لدلالته على استقلال كل جملة منها، وأنها لم تحصل مرتبطة ببعضها ارتباط ما يحتاج فيه إلى إضمار.

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾[2] وفيه دلالة على أن الطاغوت هو الشيطان، وحسن ذلك هنا تنبيهًا على تفسيره.

وقال ابن السيد : إن كان فى جملتين حسن الإظهار والإضمار لأن كل جملة تقوم بنفسها، كقولك : "جاء زيد، وزيد رجل فاضل" وإن شئت قلت : "وهو رجل فاضل" وقوله تعالى : ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[3] وإن كان فى جمل واحدة قبح الإظهار، ولم يكد يوجد إلا فى الشعر، قال : وإذا اقترن بالاسم الثانى حرف الاستفهام بمعنى التعظيم والتعجب كان المناسب الإظهار كقوله تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾[4] و﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾[5] والإضمار جائز كقوله تعالى :

---

[1] البقرة : ١٠٦.

[2] النساء : ٧٦.

[3] الأنعام : ١٢٤.

[4] الحاقة : ١، ٢.

[5] القارعة : ١، ٢.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾[١] .

ووضع المظهر موضع المضمر فإنه يشير إلى معان قد يكون بعضها من خصوص دلالة الاسم الظاهر الذى أوثر وضعه موضع المضمر، فإذا كان المظهر اسم إشارة أفاد كمال العناية بتميزه لأن الخبر عنه خبر غريب، كقول ابن الراوندى :

كم عـاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهـل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

والشاهد اسم الإشارة لأنه يعود إلى الحكم السابق عليه، وهو كون العاقل محروما والجاهل مرزوقا، فالمقام للضمير لأن هذا الحكم غير محسوس، واسم الإشارة موضوع للمحسوس، والحكم البديع الذى أسند إلى اسم الإشارة هو جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقا[٢] .

وإما للتهكم بالسامع، كما إذا كان فاقد البصر أو لم يكن ثم مشار إليه أصلاً، وإما للنداء، على كمال بلادته بأنه لا يدرك غير المحسوس بالبصر، أو على كمال فطانته بأن غير المحسوس بالبصر عنده كالمحسوس عند غيره وإما لادعاء أنه كمل ظهوره حتى كأنه محسوس بالبصر، ومنه فى غير باب المسند إليه قول مرة بن عبد الله الهلالى :

تعاللت كى أشجى وما بك علة تريدين قتلى، قد ظفرت بذلك

والمعنى : تعاللت -ادعاء العلة- أشجى - بمعنى أحزن والشاهد فى وضع اسم الإشارة موضع الضمير لأن الظاهر أن يقال قد ظفرت به

---

[١] القارعة : ٩، ١٠.

[٢] بغية الإيضاح، ص ١٤٨ للشيخ عبد المتعال الصعيدى.

أى بالقتل، والداعى إلى ذلك هو ادعاء كمال ظهوره حتى كأنه محسوس بالبصر.

وإن كان المظهر غير اسم إشارة فالعدول إليه من المضمر إما لزيادة التمكين أو الاستعطاف والخضوع الموجبين للشفقة كقول إبراهيم بن أدهم :

إلهى عبدك العاصى أتاك	مقرًا بالذنوب وقد دعاك
فإن تغفر فأنت لذاك أهل	وإن تطرد فمن يرحم سواك

قال : عبدك، وهو يريد نفسه، وكان الظاهر أن يقول : أنا أتيتك، ولكنه آثر قوله عبدك لأن فى كلمة عبد معنى التذلل والخضوع، ثم فى هذه الإضافة ما يرشح الرجاء لأن فيه أننى عبدك الذى هو مضاف إليك وكل هذا مما يحسن به سياق الضراعة والدعاء.

وقوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[1].

يعلل ابن جنى لوضع "الذين ظلموا" المظهر فى المرة الثانية موضع المضمر فيما لو قيل : "فأزلنا عليهم رجزًا" فيقول : لأن ذلك أشد مبالغة فى ذمهم، وأدخل فى باب التفحيش لذكرهم، ولأن إظهار الاسم المستحق للعقاب مع الإخبار بوقوعه به، أبلغ من إضماره وأجدر يخوف الخائف من مشاركته فى وجه استحقاقه.

نقل ذلك عنه الشريف الرضى فى "حقائق التنزيل" يُنظر به لقوله

---

[1] البقرة : ٥٩.

تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[1] معللاً لتكرير لفظ الجلالة (الله) فى محل الإضمار لو قيل : "وإليه ترجع الأمور" قال : إنما أعيد اسم الله تعالى هنا للتفخيم والتأكيد، ومن عادة العرب إذا أجروا ذكر الأمر يعتمدون تفخيمه ويقصدون تعظيمه أن يعيدوا لفظه مظهرًا غير مضمر، إذا كان الإضمار يطاطئ من الاسم ويضائله، بقدر ما يرفع منه الإظهار ويفخمه وعلى ذلك قول الشاعر.

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فلو قال : يسبقه شىء لكان مستقيمًا، ولكنه أعاد الاسم تفخيمًا، ولم يرضى أن نثي ذكره حتى ثلثه، مبالغة فى الغرض الذى رماه والمعنى الذى نحاه، ومثل ذلك قول أبى النشناش النهشلى :

فعش مُعدما، أو مت كريمًا، فإننى

أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه[2]

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[3] .

فى هذا النص الكريم قد وضع لفظ "رب" المظهر مضافًا لضمير

---

[1] آل عمران : ١٠٩.

[2] حقائق التنزيل، ج ٥، ص ٢١٣ للشريف الرضى.

[3] الأحقاف : ٢٤ - ٢٥.

الريح محل ضمير المتكلم فيما لو قيل : "تدمر كل شيء بأمري" أو "بأمرنا" مما يقتضيه السياق على غرار "كذلك نجزى القوم" وقد جاء بعده ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا . . .﴾ لاحظ هذا الزمخشرى فقال : فإن قلت : ما فائدة إضافة الرب إلى الريح ؟ الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما تشهد لعظيم قدرته، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده، وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عز وجل يعضد ذلك ويقويه[1] .

فإضافة هذا الاسم المظهر إلى ضمير الريح المفزعة المخيفة، يدل على مربوبيتها لمن هى أحد جنوده، وعلى كونه سبحانه وتعالى هو ربها الآمر لها بما تفعل، ولا تدل على شيء من هذا المغزى البعيد، إضافة الأمر إلى ضمير المتكلم لو قيل : "تدمر كل شيء بأمرنا".

ولفظ الربوبية حيثما وجد يفيد مثل هذه الدلالة من تولى الرب شأن المربوب بالنعمة، واستيلائه عليه بالقدرة، وتصريفه إياه بالحكمة، فإذا أضيفت إلى النبى والمؤمن كانت تكريمًا وتشريفًا وتذكيرًا حسنًا بالولاية، وإذا أضيفت إلى غيرهما من البشر كانت تقديرًا بجحد حقها عليه، وإذا أضيفت لغير عاقل كانت دليلاً على سعة الملك وكمال القدرة وشمولها.

يقول صاحب الكشاف فى قوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[2] .

---

[1] الكشاف، ج ٤، ص ٤٥.

[2] الزمر : ٦٩.

وإضافة اسمه إلى الأرض، لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها، ولا ترى أزين للبقاع من العدل، ولا أعمر لها منه، وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذى يعدل فيها، وإنما يجوز فيها غير ربها[١] .

فسيادة قانون الشريعة فى الأرض، وإرسال القائمين بنشره وتطبيقه، من أجل النعم التى تربى عليها المربوب من ربه المتفضل بهذه التربية، فلفظ "رب" المضاف إلى ضمير الأرض، يناسب نعمة النور والإشراق التى استفاضت عنه فى خلقه، مما جعل ذلك الاسم المظهر فى موضعه أوفى وأولى من ضمير التكلم فيما لو قيل : "وأشرقت الأرض بنورى" وإما لإدخال الروعة والمهابة فى نفس السامع نحو: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٢] لاندراج كل كمال تحت لفظ الجلالة فأجدر به أن يكون موضع التكلان.

وإما للتهكم والتعجب نحو : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٣] ثم قال بعد ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[٤] فالغرض شدة النكير عليهم والتعريض بأنهم حقًا أهل التمرد والعناد[٥] .

---

[١] الكشاف، ج ٤، ص ٤٥.

[٢] آل عمران : ١٥٩.

[٣] ص : ١، ٢.

[٤] ص : ٤.

[٥] علوم البلاغة للمراغى، ص ١٤٤.

ومن التعبير بالمظهر موضع المضمر، قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[١] .

قال : إذا أعجبتكم كثرتكم، فذكرهم بضمير المخاطب، ثم قال : ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وكان سياق الأسلوب أن يقول : ثم أنزل الله سكينته عليكم، ولكن لما كان في إنزال السكينة لطفًا بهم وتكريمًا لهم قال : رسوله والمؤمنين فذكرهم بأوصاف التكريم والتعظيم كأنه، فأنزل سكينته على هذا النبى الكريم وهذه الفئة الموصولة بخالقها أوثق ما تكون الصلة[٢] .

وواضح من هذه الشواهد أن هذه الإشارة إنما أوحت لها دلالة المظهر لأنها ذات خصوصية فى السياق مثل : الذين ظلموا، والكافرين، ورسوله - وهناك ضرب من وضع الظاهر موضع المضمر يراد به هذه الخصوصية تقرير المظهر وتمكينه فى القلوب، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[٣] بعد ذكر لفظ الجلالة وآثر المظهر على الضمير، لأن اللفظ للجلالة بمدلوله الكريم وقعًا عظيمًا فى القلب والمراد تمكين الألوهية وإشاعة هجنتها فى الضمائر.

---

[١] التوبة : ٢٥ - ٢٦.

[٢] خصائص التراكيب، ص ١٩٢ د/ أبو موسى.

[٣] الإخلاص : ١ - ٢.

وخذ المصحف واقرأ فيه من أى موضع تشاء تجد هذا الأسلوب وكأنه أصل من أصول البلاغة القرآنية، تجد أسماء الله الحسنى وخصوصًا هذا الاسم الأعظم تقع هذا الموقع فى كثير من الجمل القرآنية لينساب نورها الغامر فى القلوب وتشيع مدلولاتها فتتمكن من النفوس زيادة تمكن وتتقرر فى السرائر أحسن قرار، وبذلك تتربى مهابة الحق وحده فى الأمة التى يربيها القرآن[1].

وقد أدرك البلاغيون وحى الكلمة وعملها بما يثيره لفظها من شئون النفس لا يستطيعها الضمير العائد عليها، فأشاروا إلى أن الكناية يعنون بها الضمير - والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الإفصاح والتكشيف، فإذا كان الضمير يعطى إشارة ذهنية إلى العائد عليه تحضره فى النفس، إلا أن قدرًا كبيرًا من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظًا بها، ولا يستطيع الضمير حملها نيابة عنه لأنها تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته المختلفة جد الاختلاف والتى اكتسبها فى قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[2] فإنه من الواضح أنه لو قيل : وبه نزل، لكان الضمير عائدًا على الحق ومؤديًا معناه من حيث الدلالة النحوية، أو الدلالة المنطقية، ولكن يبقى لكلمة الحق من القدرة على إثارة قدر كبير من الخواطر لا ينهض الضمير بشىء منها.

وليس ذلك خاصًا بكلمة الحق ودلالتها الإنسانية الخصبة وإنما

---

[1] خصائص التراكيب، ص ١٩٢ د/ أبو موسى.

[2] الإسراء : ١٠٥.

يجرى فى كثير من الكلمات التى لها فى سياق الحديث مكان خاص، انظـر إلى قول النابغة :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والإقداما

نجده لم يقل : نفس عصـام سـودته وإن كـان الضمـير عـائدًا علـى عصام من غير لبس لأنه أراد أن تقع السيادة من نفس عصام على عصـام هكذا بلفظه.

قال عبد القاهر : «لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الإظهـار، وإن له موقعًا فـى النفـس وباعثًـا للأريحيـة لا يكـون إذا قيـل نفس عصـام سودته، شىء منه البتة».

أهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أمالى المرتضى للمرتضى.

٣- أسلوب التغليب د/ محمود عبد العظيم صفا.

٤- البرهان فى علوم القرآن للزركشى.

٥- البحر المحيط لأبى حيان.

٦- بديع القرآن لابن أبى الاصبع، ت : حفنى شرف.

٧- البديع لابن المعتز، تحقيق كراتشوفسكى .

٨- بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدى.

٩- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.

١٠- تفسير أبو السعود.

١١- التفسير الكبير لفخر الدين الرازى.

١٢- حاشية الشهاب على البيضاوى للبيضاوى.

١٣- حقائق التنزيل للشريف الرضى.

١٤- الخزانة لابن حجة الحموى.

١٥- الخصائص لابن جنى.

١٦- خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى.

١٧- روح المعانى للألوسى.

١٨- درة الخواص فى أوهام الخواص للنيسبورى.

١٩- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى.

٢٠- شرح الكافية للرضى الاسترابازى.

٢١- شروح التلخيص.

٢٢- الصاحبى لابن فارس.

٢٣- صحيح البخارى.

٢٤- عروس الأفراح لبهاء الدين السبكى ضمن شروح التلخيص.

٢٥- عقود الجمان للسيوطى.

٢٦- علوم البلاغة للمراغى.

٢٧- العمدة لابن رشيق القيروانى.

٢٨- فن البلاغة د/ عبد القادر حسين.

٢٩- الكتاب لسيبويه.

٣٠- الكشاف للزمخشرى.

٣١- الكامل للمبرد.

٣٢- مجاز القرآن لأبى عبيدة، تحقيق د/ محمد فؤاد سزكين.

٣٣- المحتسب لابن جنى.

٣٤- المطول لسعد الدين التفتازانى.

٣٥- معترك الأقران للسيوطى.

٣٦- معانى القرآن للفراء، تحقيق د/ نجاتى.

٣٧- المفضليات للمفضل الضبى.

٣٨- منهاج البلغاء حازم القرطاجنى، تحقيق الحبيب بن خوجة.

٣٩- المقتضب للمبرد.

٤٠- المنهاج الواضح حامد عونى.

فهرست الموضوعات


Bibliotheca Alexandrina
0682724